رسالة المسجد

مجلة محكمة تصدرعن وزارة شؤون الدينية والأوقاف - الجزائر

الدكتور محمد عيسى
وزير الشؤون الدينية والأوقاف
المدير العام مسؤول النشر

رئيس التحرير: الدكتور نور الدين محمدي، مدير التوجيه الديني والتعليم القرآني
مستشار المدير العام: السيد حميد رمضة، المفتش العام.
أمانة التحرير: أ . سميرة مخالدي ، أ . بلال سعيدان
إطاران في المديرية الفرعية للتوجيه الديني والنشاط المسجدي

هيئة التحرير

- أ. د . محمد يعيش،عميد كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر.
- أ. د . عمار طالبي، باحث جامعي.
- أ. د . عبد الله بوخلخال، باحث جامعي.
- أ. د . مصطفى باجو، باحث جامعي، غرداية.
- د . موسى إسماعيل، باحث جامعي، جامعة الجزائر.
- أ. محمد شيخ، مفتش مركزي.

المحتويات

- الافتتاحية/ السيد الوزير — د. محمد عيسى — 3
- ملف العدد:
  - أعلام الإصلاح في الجزائر — أ . قادة رابح — 6
  - الطلاق وأثره على جنوح المراهقين والأحداث — أ. عبد القادر بوعافية — 21
  - خبوت فكرة المهدوية في الغرب الإسلامي -الموحدون نموذجا- — الباحث. بزوجي وليد — 40
  - مناهج التأليف الفقهي في المذهب المالكي كتاب «المقدمات الممهدات» للإمام ابن رشد الجد -أنموذجا-. — أ . فتحي لعطاوي — 61
  - مؤشرات تغييب الوسطية — أ . إبراهيم شابو — 98
- خطبة العدد:
  - الزكاة وأثرها في تحقيق التكافل الاجتماعي — أ.عربي عثمان — 119

الكلمة الافتتاحية لمعالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف، الدكتور محمد عيسى

يوم الشهيد المرجع والرسالة

فلقد التفَّ الشعب الجزائري حول ثورة نوفمبر المباركة ، وافتخر بأمجادها ، وعانق ذكريات شهدائها ؛ ووقف بروح جياشة متوقدة بالوطنية الصادقة شامخا في مضمار الاحتفاء بالتاريخ ؛ مقبلا على قراءة تاريخ الثورة المجيدة بتعطش معرفي ليطالع تاريخها الذي سطرته في سبيل تحرير البلاد من ربقة المستعمر وظلامه .

فلا جرم أن الصرخة التي تضمنها نشيدنا الوطني :

صرخة الأوطان في ساح الفدى
اسمعوها واستجيبوا للندى
واكتبوها بدماء الشهـــــدا
واقرأوها لبني الجيل غـــــدا

هي من صميم رسالة الإسلام الحنيف ؛ فصحابة رسول الله - عليه الصلاة والسلام - كانوا يعلِّمون الغزوات لأبنائهم كما يعلِّمونهم السورة من القرآن ؛ فقد كانوا يحدثونهم عن غزوة بدر وغزوة أُحد ، ويحدثونهم عن غزوة مؤتة وعن غزوة الخندق ، وواجبنا اليوم هو أن نروي البطولات التي صنعها المجاهدون الأبطال والشهداء الأبرار لأبنائنا وأحفادنا ؛ حتى تظل الرسالة مشرقة ومتوارثة .

ولذلك فإن أسرة المساجد من السادة الأئمة والمرشدات لا تجد فرقا بتاتا بين أن تحكي على منابرها وكراسي دروسها وفي أوقات تعليمها وندواتها عن غزوات رسول الله ﷺ، وعن ملاحم ثورة التحرير المجيدة ، لا يفرقون بين شهداء بدر وشهداء الخندق وبين الشهداء الذين سقطوا

في أرض الجزائر محتسبين أرواحهم فداء لأرض آمنوا بأنها أرض الله ؛ لأن سيدنا عقبة بن نافع فتحها لله فارتفع فيها الأذان وتُلي فيها القرآن .

وإننا نجد أنفسنا في هذه الذكرى (ذكرى يوم الشهيد)ملتزمين بتجديد العهود حتى تستمر الرواية التاريخية وقادة في الأذهان ، ويستمر التقديس للثورة حاضرا في القلوب، ويستمر الاقتداء بالمجاهدين والشهداء فاعلا في السلوك ، وتستمر المحاكاة بأخلاقهم صانعة للقدوة ، التي نعتبر من خلالها آباءنا المجاهدين الذين مازالوا على قيد الحياة نبراسا وأسوة وقدوة لأبنائنا ، ولنجعل من مبادئ ثورة التحرير التي جمعت الكلمة ووحدت الصفوف دافعا على بناء الوطن والمحافظة عليه .

ولقد علم الاستعمار الحديث بأن قوتنا في ديننا وفي حبِّ وطننا وعلم بأن الإسلام الذي نعتقده في وسطيته واعتداله هو إسلام التسامح وقبول الآخر، وهو الذي جمعنا ووحد كلمتنا، وعلى منواله أراد أعداء الجزائر أن يحوِّل هذا الإسلام إلى تدين مشوه صانع للتفرقة والكراهية ؛ فعاشت الجزائر أثناء العشرية السوداء فتنة مريرة لم تكن ناشئة في زاوية من زوايا الجزائر، ولا في جامع من جوامع الجزائر، ولم يقل بها عالم من علماء الجزائر ، ولا كانت من نتائج مقررات مدارسنا ولا مقررات جامعاتنا ولكن يدا أرادت أن تفتننا في ديننا تشبه الفتنة التي كان يتعوذ منها رسول الله ﷺ عندما كان يقول « اللهم لا تجعل فتنتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا» و الفتنة في الدين هي أن يكون الدين الذي أوحى به الله تعالى ليجمع الكلمة يستعمل لتفريق الكلمة ونشر العداوة، وكانت الجزائر هي أرض التجربة الأولى التي مست اليوم أطراف الدنيا جميعا في مشارق الأرض ومغاربها ، وكادت تفيض على وطننا من جديد لولا فضل الله ثم بفضل الأئمة الأفاضل فرسان المنابر ، لأن الخطر الذي يهدد أوطاننا اليوم هو خطر جديد لم

ينشأ بسبب معاناة، بل نشأ في مخابر مجهولة تعمل لاستقطاب شباب لم يرتادوا مسجدا، ولم يلتحقوا بمدرسة قرآنية، ولم يحفظوا القرآن الكريم، ولم يرجعوا إلى إمام يرشدهم ولا إلى عالم ينصحهم؛ بل تعلموا جرائمهم من شبكة خطيرة في عالم افتراضي مليء بقوى الشر التي تعمل على تشويه صورة الإسلام وتقسيم مجتمعاتنا الموحدة بالإسلام إلى مجتمعات تكون فيها المذهبية والطائفية هي الهوية التي تعلو على الانتماء إلى الإسلام وتكون الجهوية والعرقية هي الجنسية البديلة عن الانتساب إلى الأوطان .

وإن الجزائر اليوم لتأبى بأئمتها ونخبتها العالمة وبرجال إعلامها أن تقع في هذا المخطط الظلامي الخطير؛ فالجزائريون مسلمون وكفى؛ ويعتقدون بأن الإسلام الذي جمعنا بالأمس هو الذي يستطيع أن يجمعنا اليوم وهو الإسلام الأصيل المرجعي الذي يحفظ مجتمعنا، لأن مفاهيم الإسلام السمح تجمع ولا تفرق ؛ تقوي ولا تضعف ؛ تحيي ولا تميت ، ومادمنا متمسكين بها فنحن على خير إلى يوم الدين .

وزير الشؤون الدينية والأوقاف

الدكتور محمد عيسى

أعلام الإصلاح في الجزائر:

الأستاذ: قادة رابح
إمام مدرس بمسجد سيدي الناصر
دائرة فرندة، ولاية تيارت.

الذين حملوا راية الإصلاح في الجزائر كثيرٌ هم[1]، وإن أحصى لنا التاريخ بعضهم، إلاّ أن الواجب يملي علينا أن لا ننسى فضلهم علينا، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾[2]، وأن نتذكّرهم بجميل خصالهم، ولا نخوض فيما شجر بينهم على سبيل التجريح، فحسناتهم غطت عنهم كل قبيح، وإذا رأيت أحدا ينتقصهم، فاعلم أنه أحد الرّجلين، إما جاهل لا يعرف قدرهم، وإما تابع للاستعمار يصدّق قوله ويقتدي بفعله، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخله معهم، ظانّا أن الخير في ذلك الجحر، وما أنتنه وما أضيقه.

التيار الإصلاحي في الجزائر لم يبدأ إلا بعد أن عاث الاستعمار فسادا في هذه الأرض الطاهرة، وأهلك الحرث والنسل، ومارس سياسة التجهيل قرابة ما يزيد عن القرن من الزمن.

مع مطلع العشرينيّات من القرن الماضي، كانت بوادر الإصلاح تلوح في الأفق، والوعي القومي ينتشر بين أوساط الجزائريين، وأول من عادى الإصلاح هم أصحاب الزوايا الموالين لفرنسا[3]، حيث أن مصالحهم أضحت مهددة، فزوال فرنسا هو زوالهم، وبقاؤها يضمن وجودهم وسيطرتهم على الجماهير.

تفطنت فرنسا -بحكم قربها من الزوايا الخاضعة لها- لهذا الأمر، وأرادت استعمال هذه الورقة لصالحها، ألا وهو إذكاء نار الفتنة بين الزّوايا وروّاد النّهضة الإصلاحية، والهدف واضح «إجهاض العملية الإصلاحية في الجزائر».

لكن نباهة الشيخ عبد الحميد بن باديس[4] رحمه الله جعلته يتفادى هذا الفخ، فبأعجوبة كبيرة استطاع أن يقترب من بعض شيوخ الزوايا، وأن يكسب ودّهم ودعمهم لنصرة فكرة الإصلاح والتغيير، خاصة في الغرب الجزائري.

فالطريقةالرحمانية[5] مثلا كانت تؤمن بالاستقلال، ولا سبيل إلا الجهاد، والطريقة السنوسية[6] لها كلمتها في مقاومة الاستعمار، أما بعض الزوايا فكانت تستعمل طريقة التّقية المعروفة لدى الشّيعة في تعاملها مع المستعمر، حتى لا يدمّرها، وتضمن وجودها في الحفاظ على الهوية الوطنية واللغة العربية والقرآن الكريم.

وعلى النقيض تماما كانت بعض الزوايا تكنّ حنينا لا مثيل له لفرنسا[7]، حتى بلغ بها الأمر أن أصدرت فتوى لمريديها فحواها أنه يجوز البقاء تحت سلطة الكافر، ولكن رغم هذا كانت تدرّس وتقوم بدورها التّعليمي، وهذا هو الجميل الذي لم تتنكّر له الدّولة الجزائرية، وعاملت جميع الزوايا التي كانت قائمة في العهد الاستعماري معاملةَ الحُسنى[8].

لا أريد أن أسمي فالمعرض معرض بحث وليس تشفّي أو تعيير، فالتاريخ لا يرحم كما يقال، لكن إذا أراد هؤلاء المساس بأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أو تنقيصهم، أو رميهم بالعُمالة لفرنسا، فهذا بهتان لا نقبله أبدا.

عندما نظن بالزوايا التي كانت تظهر ولاءً لفرنسا لا مثيل له أحسن المخارج، ونلتمس لهم أحسن المذاهب، فمن باب أولى ألا نتّهم الجمعية بمثل هذه الافتراءات التي لا أساس لها من الصحة.

نأسف عندما نرى أن بعض المثقّفين وشيوخ زوايا مازالوا إلى الآن، في هذا الفخ الاستعماري يتخبّطون ويتّهمون ويظنّون.

المستعمر هو المتّهم، والكلّ براء، فهو الذي خطّط، وهو الذي جهّل، وهو الذي دمّر، وهو الذي قتل، وهو الذي شرّد، وهو الذي جوّع، وهو الذي اضطهد، وهو... وهو... في رأيي لولاه لما كان هذا الصراع موجودا أصلا.

الذي ألبس الشعب الجزائري لباس الخوف والجوع هو المتّهم، أما الباقي وإن تعددت الطرق، وكثرت المسمّيات، فالغاية واحدة «التشبّث بالأصل».

في هذه الورقات نتذكر جهاد هؤلاء الثُلّة من العلماء، فجهاد الإصلاح أصعب من جهاد السّيف، وإلاّ ما الدّافع الذي جعل المجاهد يرتمي إلى أحضان الموت، ويبغي العيش بكرامة أو الشهادة، ويتمنّى الحرّية والاستقلال لوطنه، إنّها آثار الإصلاح.

يجب علينا ألّا ننكر دور جمعية العلماء المسلمين في تحرير العقول قبل تحرير السّهول، إنَّ زرع الإيمان بالثّورة في مجتمع كبّلته قيود الدّجل، وران عليه الوهن رَدحا من الزّمن، ليس بالأمر الهيّن، خاصّةً في ظلّ الرّقابة العسكرية الفرنسية المفروضة آنذاك.

وأول رجل نتذكّره، ولا ننساه أبدا، صاحب رائعة: «شعب الجزائر مسلم» الأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس -رائد النهضة الحديثة بالمغرب العربي وقائد الحركة الإصلاحية ومؤسسها بالجزائر-.

نبذة مختصرة من حياته رحمه الله :

هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس أبوالفتوح، ولد بمدينة قسنطينة يوم الحادي عشر من ذي القعدة عام سبع وثلاثمائة وألف للهجرة من أسرة ثرية بربرية صنهاجية عريقة؛ كان لها الملك والسلطان خلال القرن الرابع الهجري، وأبرز رجالها الأمير المعز لدين الله بن باديس المتوفّى سنة أربع وخمسين وأربعمائة للهجرة؛ الذي نصر السنة وحارب البدعة وقضى على العبيديين الباطنيين وأبعدهم عن الغرب الإسلامي، وأعلن مذهب أهل السنة.

ظهرت على الشيخ علامة النجابة وحب العلم منذ صباه، فسخّر الله له أباً صالحاً وطّأ له سبل العلم وشجعه عليه وكفاه المؤنة حتى قال له: (اكفني همّ الآخرة أكفك همّ الدنيا).

حفظ القرآن كاملاً على محمد المادامي أشهر قراء قسنطينة في وقته، وأتم دراسته بالزيتونة، ودرس بها. من شيوخه الطاهر بن عاشور ومحمد النخلي والبشير صفر وغيرهم كثير.

رحل إلى عدة بلدان منها: الحجاز وسوريا ولبنان ومصر، والتقى بعلمائها كمحمد بخيت المطيعي الذي أجازه، وغيره.

ومن العوامل التي نهجت به المسلك الصحيح عقيدة وسلوكاً التقاؤه بعلماء الحجاز، فترعرعت فكرة الإصلاح في نفسه، والتقى للمرة الأولى بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي بالمدينة النبوية وتدارسا الإصلاح في الجزائر وسبله مدة ثلاثة أشهر يلتقيان كل ليلة.

رجع إلى الجزائر ودرّس بمساجدها، وقد فسر القرآن كله خلال خمس وعشرين سنة في دروس يومية، كما

شرح موطأ مالك خلال هذه المدة. وأسس مع مجموعة من العلماء (جمعية العلماء الجزائريين) وكان رئيساً لها منذ تأسست إلى أن مات. وقد أصدر رحمه الله عدة صحف منها «المنتقد» و«الشهاب» و«البصائر» وغيرها.

توفي بعد معاناة شديدة من المرض في ربيع الأول عام تسع وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة (1359هـ) بمسقط رأسه رحمه الله.

من آثاره:

«العقائد الإسلامية» وجمع له من مجلة «الشهاب» كتابات في التفسير بإشراف محمد الصالح رمضان وتوفيق شاهين وطبعت بعنوان: «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير».

وله مقالات كثيرة جداً في الفقه والحديث في جرائد ومجلات (جمعية العلماء) وقد جمع الدكتور عمار طالبي قسطاً طيباً من آثاره ولا يزال قسط آخر لم يجمع بعد.

موقفه من المبتدعة:

- قال رحمه الله في سبب اختياره الدين على السياسة للنهوض بالأمة: (وبعد: فإننا اخترنا الخطة الدينية على غيرها، عن علم وبصيرة، وتمسكا بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا من النصح والإرشاد، وبث الخير والثبات على وجه واحد والسير في خط مستقيم، وما كنا لنجد هذا كله إلا فيما تفرغنا له من خدمة العلم والدين، وفي خدمتهما أعظم خدمة، وأنفعها للإنسانية عامة.

ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسي لدخلناه جهرا، ولضربنا فيه المثل بما عرف عنا من ثباتنا وتضحياتنا، ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها، ولكان أسهل شيء علينا أن نسير بها على ما نرسمه لها، وأن نبلغ من نفوسها

إلى أقصى غايات التأثير عليها، فإن مما نعلمه -ولا يخفى على غيرنا- أن القائد الذي يقول للأمة: إنك مظلومة في حقوقك، وإنني أريد إيصالك إليها، يجد منها ما لا يجد من يقول لها: إنك ضالة عن أصول دينك، وإنني أريد هدايتك، فذلك تلبيه كلها، وهذا يقاومه معظمها أو شطرها. وهذا كله نعلمه، ولكننا اخترنا ما اخترنا لما ذكرنا وبينا، وإننا -فيما اخترناه- بإذن الله لماضون، وعليه متوكلون).

- وله «الدرر الغالية في آداب الدعوة والداعية» قال فيه:

(**تحذير:** خطبة الجمعة اليوم: أكثر الخطباء في الجمعات اليوم في قطرنا يخطبون الناس بخطب معقدة، مسجعة طويلة، من مخلفات الماضي، لا يراعى فيها شيء من أحوال الحاضر، وأمراض السامعين، تلقى بترنم وتلحين، أو غمغمة وتمطيط، ثم كثيرا ما تختم بالأحاديث المنكرات، أو الموضوعات.

هذه حالة بدعية في شعيرة من أعظم الشعائر الإسلامية، سد بها أهلها بابا عظيما من الخير فتحه الإسلام، وعطلوا بها الوعظ والإرشاد وهو ركن عظيم من أركان الإسلام. فحذار أيها المؤمن من أن تكون مثلهم إذا وقفت خطيبا في الناس. وحذار من أن تترك طريقة القرآن والمواعظ النبوية إلى ما أحدثه المحدثون)[9].

هذه مقتطفات من حياته وآثاره، أوردناها باختصار، نرجو بها النّفع لإخواننا الأئمة.

ولكن إذا ذكرنا الشيخ عبد الحميد بن باديس، لا ننسى صاحبه ثاني اثنين، حامل لواء الإصلاح بعده، محمد البشير الإبراهيمي، تعالوا بنا أيها الإخوة الكرام نتعرف على هذه الشخصية الفذة.

فمن هو محمد البشير الإبراهيمي:

ولد في الثالث عشر من شوال سنة ست وثلاثمائة وألف للهجرة بقرية أولاد إبراهيم قرب سطيف؛ من أسرة ترجع أصولها إلى الأدارسة الذين حكموا المغرب. حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، وحفظ المتون على يد والده وعمه محمد المكي الإبراهيمي، كما تفقه في قواعد النحو والفقه والبلاغة. وكان من أعلم أهل بلده في وقته، خلف عمه في التدريس لما مات وهو ابن الرابعة عشر.

وخلال رحلته إلى المدينة لطلب العلم؛ حط الرحال بالقاهرة ثلاثة أشهر يتردد فيها على الأزهر. وفي الحرم النبوي الشريف درس الموطأ على عبد العزيز الوزير التونسي، وصحيح مسلم على حسين أحمد الفيض أبادي الهندي وغيرهما من المشايخ، ولما اشتد عوده درّس به أيضاً.

ورحل إلى دمشق سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة فاشتغل مدرساً للعربية بالمدرسة السلطانية الأولى، وكان يلقي الدروس في الجامع الأموي، وشارك في تأسيس المجمع العلمي للتعريب بدمشق. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عاد للجزائر فاشتغل بنشر العلم.

كان خطيباً مفوهاً، وشاعراً فصيحاً، وأديباً بليغاً، شارك شكيب أرسلان في إمارة «البيان العربي»، واختير لعضوية مجمع اللغة العربية بمصر سنة ثمانين وثلاثمائة وألف للهجرة.

التقى أول مرة بعبد الحميد بن باديس بالمدينة النبوية فاستمرت لقاءاتهما كل ليلة على مدى ثلاثة أشهر يدرسان فيها سبل النهوض والإصلاح الديني في الجزائر، ثم عادا إلى بلدهما فأسسا جمعية العلماء.

وقد نفاه المحتل الفرنسي، إلى صحراء وهران؛ ولما توفي ابن باديس اختاره العلماء لرئاسة الجمعية وهو في منفاه إذ لبث فيه ثلاث سنوات يدير الجمعية بالمراسلة. واستمر في استكمال ما قام به سلفه من إنشاء المدارس وبناء المساجد، وتعليم الطلاب، وأنشأ معهداً ثانوياً وسماه بـ (معهد عبد الحميد بن باديس).

كانت له علاقة وطيدة بمفتي الديار السعودية في وقته الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والشيخ عمر بن حسن آل الشيخ رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وافته المنية في الثامن عشر من غرة محرم عام خمس وثمانين وثلاثمائة وألف للهجرة.

من آثاره:

1 – «بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية بالجزائر».

2 – «النقايات والنفايات في لغة العرب».

3 – «حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام».

4 – «شعب الإيمان».

5 – «قصيدة شعرية رجزية في ست وثلاثين ألف بيت نظمها في منفاه بالصحراء، وصف فيها الفرق المعاصرة وأولياء الشيطان، ومكايد الاستعمار وهي أيضاً حول تاريخ الإسلام والمجتمع الجزائري».

6 – «عيون البصائر».

7 – «رسالة الطب».

8 – «نظام العربية في موازين كلماتها».

9 – «محاضرات وأبحاث وفتاوى» جمعها أحد تلاميذه. وقد طبعت مجموعة تحت عنوان: «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» في خمس مجلدات.

- وقال عن التعصب المذهبي: هذه العصبية العمياء التي حدثت بعدهم -أي الفقهاء والأئمة الأربعة على وجه الخصوص- للمذاهب والتي نعتقد أنهم لو بعثوا من جديد لأنكروها على أتباعهم... وقد طغت شرور العصبية للمذاهب الفقهية في جميع الأقطار الإسلامية، وكان لها أسوأ الأثر في تفريق كلمة المسلمين، وأن في وجه التاريخ الإسلامي منها لندوباً.

موقفه من الموالين للاستعمار:

- قال في خطبة ألقاها بإذاعة صوت العرب سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف للهجرة -حول موالاة الكفار المستعمرين-: بسم الله الرحمن الرحيم، إذا قلنا: (إن موالاة المستعمر خروج عن الإسلام)؛ فهذا حكم مجمل، تفصيله: إن الموالاة مفاعلة، أصلها الولاء أو الولاية، وتمسها في معناها مادة التّولّي، والألفاظ الثلاثة واردة على لسان الشرع، منوط بها الحكم الذي حكمنا به؛ وهو الخروج عن الإسلام، وهي في الاستعمال الشرعي جارية على استعمالها اللغوي، وهو في جملته ضد العداوة؛ لأن العرب تقول: وَالَيتُ أو عاديتُ، وفلان وليّ أو عدوّ، وبنو فلان أولياء أو أعداء، وعلى هذا المعنى تدور تصرفات الكلمة في الاستعمالين الشرعي واللغوي.

وماذا بين الاستعمار والإسلام من جوامع أو فوارق حتى يكون ذلك الحكم الذي قلناه صحيحاً أو فاسداً؟

إن الإسلام والاستعمار ضدان لا يلتقيان في مبدإ ولا في غاية، فالإسلام دين الحرية والتحرير، والاستعمار دين العبودية والاستعباد، والإسلام شرع الرحمة والرفق وأمر بالعدل والإحسان، والاستعمار قوامُه على الشدة والقسوة والطغيان، والإسلام يدعو إلى السلام والاستقرار،

والاستعمار يدعو إلى الحرب والتقتيل والتدمير والاضطراب، والإسلام يُثبت الأديان السماوية ويحميها، ويقرّ ما فيها من خير ويحترم أنبياءها وكتبها، بل يجعل الإيمان بتلك الكتب وأولئك الرسل قاعدة من قواعده وأصلاً من أصوله، والاستعمار يكفر بكل ذلك ويعمل على هدمه، خصوصاً الإسلام ونبيه وقرآنه ومعتنقيه.

نستنتج من كل ذلك أن الاستعمار عدو لدود للإسلام وأهله، فوجب في حكم الإسلام اعتبار الاستعمار أعدى أعدائه، ووجب على المسلمين أن يطبّقوا هذا الحكم وهو معاداة الاستعمار لا موالاته.

الاستعمار الغربي -وكل استعمار في الوجود غربي- يزيد على مقاصده الجوهرية وهي الاستئثار والاستعلاء والاستغلال مقصداً آخر أصيلاً وهو محو الإسلام من الكرة الأرضية خوفاً من قوته الكامنة، وخشيةً منه أن يعيد سيرته الأولى كرةً أخرى.

وجميع أعمال الاستعمار ترمي إلى تحقيق هذا المقصد؛ فاحتضانه للحركات التبشيرية وحمايته لها وسيلة من وسائل حربه للإسلام، وتشجيعه للضالين المضلين من المسلمين غايته تجريد الإسلام من روحانيته وسلطانه على النفوس، ثم محوه بالتدريج، ونشره للإلحاد بين المسلمين وسيلة من وسائل محو الإسلام، وحمايته للآفات الاجتماعية التي يحرّمها الإسلام ويحاربها كالخمر والبغاء والقمار ترمي إلى تلك الغاية، ففي الجزائر -مثلاً- يبيح الاستعمار الفرنسي فتح المقامر لتبديد أموال المسلمين، وفتح المخامر لإفساد عقولهم وأبدانهم، وفتح المواخير لإفساد مجتمعهم، ولا يبيح فتح مدرسة عربية تحيي لغتهم، أو فتح مدرسة دينية تحفظ عليهم دينهم.

ويأتي في آخر قائمة الأسلحة التي يستعملها الاستعمار الغربي لحرب الإسلام اتفاقه بالإجماع على خلق دولة إسرائيل في صميم الوطن العربي، وانتزاع قطعة مقدسة من وطن الإسلام وإعطائها لليهود الذين يدينون بكذب المسيح وصلبه، وبالطعن في أمه الطاهرة.

فالواجب على المسلمين أن يفهموا هذا، وأن يعلموا أن من كان عدوّاً لهم فأقل درجات الإنصاف أن يكونوا أعداءً له، وأنّ موالاته بأي نوع من أنواع الولاية هي خروج عن أحكام الإسلام؛ لأن معنى الموالاة له أن تنصره على نفسك وعلى دينك وعلى قومك وعلى وطنك. والمعاذير التي يعتذر بها الموالون للاستعمار كالمداراة وطلب المصلحة يجب أن تدخل في الموازين الإسلامية، والموازين الإسلامية دقيقة تزن كل شيء من ذلك بقدره وبقدر الضرورة الداعية إليه، وأظهر ما تكون تلك الضرورات في الأفراد لا في الجماعات ولا في الحكومات.

وموالاة المستعمر أقبح وأشنع ما تكون من الحكومات، وأقبح أنواعها أن يحالَف حيث يجب أن يُخالَف، وأن يعاهَد حيث يجب أن يجاهَد ...

أيها المسلمون أفراداً وهيئات وحكومات: لا توالوا الاستعمار؛ فإن موالاته عداوة لله وخروج عن دينه. ولا تتولّوه في سلم ولا حرب؛ فإن مصلحته في السلم قبل مصالحكم، وغنيمته في الحرب هي أوطانكم. ولا تعاهدوه؛ فإنه لا عهد له. ولا تأمنوه؛ فإنه لا أمانَ له ولا إيمان. إن الاستعمار يلفظ أنفاسه الأخيرة فلا يكتب عليكم التاريخ أنكم زدتم في عمره يوماً بموالاتكم له.

ولا تحالفوه؛ فإن من طبعه الحيواني أن يأكل حليفه قبل عدوه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وقال: ولو أن المسلمين فقهوا توحيد الله من بيان القرآن وآيات الأكوان لما ضلوا هذا الضلال البعيد في فهم المعاملات الفرعية مع الله -وهي العبادات- وتوحيد الله هو نقطة البدء في طريق الاتصال به ومنه تبدأ الاستقامة أو الانحراف.

موقفه من المبتدعة[10]:

- قال رحمه الله: إننا علمنا حق العلم بعد التروي والتثبت، ودراسة أحوال الأمة ومناشئ أمراضها؛ أن هذه الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين، ونعلم أننا حين نقاومها نقاوم كل شر. إن هذه الطرق لم تسلم منها بقعة من بقاع الإسلام، وأنها تختلف في التعاليم والرسوم والمظاهر كثيراً، ولا تختلف في الآثار النفسية إلا قليلاً، وتجتمع كلها في نقطة واحدة: وهي التخدير والإلهاء عن الدين والدنيا.

- وقال: أما والله ما بلغ الوضاعون للحديث، ولا بلغت الجمعيات السرية ولا العلنية الكائدة للإسلام من هذا الدين عشر معشار ما بلغته من هذه الطرق المشؤومة... إن هذه الهوة العميقة التي أصبحت حاجزة بين الأمة وقرآنها هي من صنع أيدي الطرقيين.

الخاتمة:

ختاما نقول: لا يجدر بنا أن ننسى فضلهم، وأن تبقى اجتهاداتهم ودروسهم وكتبهم نبراسا يضيء لأئمة الجزائر درب الدعوة والإصلاح، فهم حملوا مشعل الدعوة، وقت الظلمة وصعوبة الطريق، ونحن نحمله الآن، والطريق معبدة، والأضواء ساطعة، فبهم نقتدي، وبهم نفتخر، وما ماتوا إلا وهم مخلصون، محبون لوطنهم المجد والرفعة والشموخ.

رحم الله علماء الجزائر الأطهار.

رحم الله شهداء الجزائر الأبرار.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الهوامش:

(1): نقصد علماء الجزائر عبر التاريخ، وللتوسع ننصح بكتاب قيم هو مُعجَمُ أعلام الجزائِر - مِن صَدر الإسلام حَتّى العَصر الحَاضِر، المؤلف: عادل نويهض، الناشر: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، 1400هـ/1980م، عدد الأجزاء: 1.

(2): سورة البقرة الآية رقم (235)

(3): الكتاب: دراسات في التصوف. المؤلف: إحسان إلهي ظهير الباكستاني (المتوفى: 1407هـ) . الناشر: دار الإمام المجدد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 1426هـ/2005م. ج -01- ص291-

(4): سنقدم ترجمة مختصرة للشيخ في ثنايا هذا البحث.

(5): قال: «مسيو ردوفرير جن»: إن السنوسية هي المسؤولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر، وإن السنوسية هي المدبرة لجميع نكبات فرنسا في الشمال الإفريقي والسنغال، وإنها أيدت ثورة محمد بن عبد الله في تلمسان، وصحراء الجزائر (1848 - 1861) ، وثورة الصادق في جبال الأوراس (1879) ، وثورات أولاد سيدي الشيخ (1879 - 1881) ، عالم الإسلام المعاصر 3 /216.

(6): كانت الطريقة (الرحمانية) على ما هو معروف من أكبر الحركات الدينية في الجزائر، وقد تصدى (الإخوان الرحمانيون) لمقاومة الاستعمار الفرنسي بضراوة، وقدموا تضحيات جسيمة في الثورات المتتالية والتي كان من أبرزها ثورة سنة 1871 برئاسة المقراني والشيخ الحداد، من كتاب: سلسلة جهاد شعب الجزائر، للمؤلف: بسام العسلي، الناشر: دار النفائس، ج -08- ص84-.

(7): الكتاب: مذكرات شاهد للقرن، للمؤلف: مالك بن نبي، الناشر: دار الفكر، دمشق – سورية، الطبعة: الثانية، 1404هـ - 1984م ، ج -01- ص171-.

(8): الإعانات المادية والمعنوية التي قدمها فخامة رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة شفاه الله، إلى الزوايا دون استثناء منذ توليه الحكم إلى الآن.

(9): من كتاب: موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية (أكثر من 9000 موقف لأكثر من 1000 عالم على مدى 15 قرنًا)، المؤلف: أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي، الناشر: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، النبلاء للكتاب، مراكش – المغرب، ج -09- ص263-.

(10): في المقابل هناك صوفية سنية، منهجها الكتاب والسنة كالسنوسية مثلا.

الطلاق وأثره على جنوح المراهقين والأحداث

عبد القادر بوعافية
إمام أستاذ رئيسي
مسجد أبي موسى الأشعري (الأنصار). وهران.

تمهيد:

تعتبر الأسرة من أهم مقومات المجتمع وأسسه التي تجعله متماسكاً أو متناثراً على حسب تماسكها أو تفرقها؛ وذلك لما تضمنه من إشباعات مختلفة ومتعددة لأفرادها في جميع مناحي الحياة؛ لذلك كانت ولا تزال الأسرة محط اهتمام كثير من الباحثين والباحثات على مختلف ميادينهم وتخصصاتهم العلمية؛ كل منهم يسعى جاهداً لمعرفة سر من أسرارها أو حكمة من حكمها أو تأثير من تأثيراتها على الأفراد أو الجماعات؛ وسواء كان ذلك سلباً أو إيجاباً.

ومن الميادين التي كثر البحث فيها في كيان الأسرة هو ما يتعلق بتفككها وانهيارها وتمزق أركانها بسبب أو آخر أو لهدف أو آخر وآثار ذلك التفكك على الأفراد والمجتمع في العاجل والآجل؛ سواء كان ذلك التفكك بالترمل. موت أحد الزوجين. أو بالطلاق، أو بالخلع أو الهجران...

وقد شرع الله ﷻ الطلاق في كتابه وسنة نبيه ﷺ؛ لما تحدث عن بعض تفاصيله في سورة البقرة في آيات قال فيها الله ﷻ: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ

يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿228﴾ البقرة 226، وآيات أخر متفرقات سواء في سورة البقرة بعد هذه الآية مباشرة أو في غيرها من السور كسورة الأحزاب مثلاً؛ كما أن الله سبحانه سمى سورة كاملة بالطلاق وهو السورة رقم (65) في ترتيب المصحف الشريف.

كما جاء في السنة النبوية الشريفة بعض الأحاديث والأخبار عن مشروعية الطلاق تحديد بعض ضوابطه وشروط إيقاعه.

وكما أباحت الديانات المختلفة الطلاق بين الزوجين؛ كل ديانة على حسب تشريعاتها المنوطة بها؛ بل حتى القوانين الوضعية الإنسانية سَنَّتْ قوانين خاصة بإنهاء علاقة الزواج من أجل ضبطه وضبط مخلَّفاته[1].

وحول الطلاق وأثره على الأسرة عموماً والمراهقين خصوصاً ستكون هذه المداخلة المتواضعة.

تعريف الطلاق لغة:

- قال الإمام ابن منظور: «وطلاق النساء لمعنيين:

- أحدهما حل عقدة النكاح.

- والآخر بمعنى التخلية والإرسال[2].

- وقال الإمام الجرجاني: «الطلاق في اللغة إزالة القيد والتخلية»[3].

ومنه الطلاق يحمل معنى الحل والتخلية والإزالة والإرسال؛ فهو حل لعقد النكاح، وتخلية للمرأة وسبيلها بعد أن كانت تحت عصمة الزوج، وإزالة لما كان مترتب على عقد النكاح من الواجبات والالتزامات.

تعريف الطلاق اصطلاحاً:

- قال الإمام ابن عرفة في تعريفاته: «هو صفةٌ حكميةٌ تَرْفَعُ حِلِّيَّةَ مُتْعَةَ

الزوج بزوجته؛ موجباً تكررها مرتين للحرومرة لذي الرق حرمتها عليه قبل زوج»[4].

- أو هو: «حل لعصمة النكاح بلفظ يدل عليه؛ يصدر من الزوج أو وكيله في حال الاختيار»[5].

- وفي القانون الجزائري المعدل سنة 2005م جاء: «الطلاق حل عقد الزواج؛ ويتم بإرادة الزوج، أو بتراضي الزوجين، أو بطلب من الزوجة في حدود ما ورد في المادتين (53) و(54) من هذا القانون»[6].

ومن هذا فخلاصة الطلاق هو عقد قد يوقعه الطرفان بتراض عنهما؛ كما أنه قد يكون بناء على إرادة منفردة من الزوج؛ أو بطلب من الزوجة برضا الزوج؛ وهذا العقد يمنع ما كان حلالاً للزوج قبله من الاستمتاع بزوجته.

أسباب الطلاق

تختلف أسباب الطلاق من ديانة لأخرى، بل من مجتمع لآخر على حسب الأعراف والعادات والتقاليد؛ فهي التي أحياناً تحدد مسوغات الطلاق وأسبابه.

فقد كان عند قدماء الصين مثلاً كان القانون يعاقب الرجل إذا طلق زوجته لغير الأسباب المنصوص عليها وهي[7]:

1 - العقم: أي عدم القدرة على الإنجاب.

2 - كثرة الكلام: أي الثرثرة.

3 -المرض الذي لا برء منه غالباً: أي لا أمل في الشفاء منه.

4 -عدم احترام والدي الزوج.

5 -السرقة.

6 -سيئة الطبع في السلوك والفسق.

أما علماء النفس فيلخصون أسباب الطلاق في أمور عدة؛ وإن كانت في الغالب لا يعني وجودها بالضرورة وجود الطلاق؛ ومن بين هذه الأمور[8]:

1. الصراعات الزوجية داخل الأسرة.
2. عدم الانسجام النفسي بين الزوجين.
3. اختلاف الثقافة العامة والخاصة بين الزوجين.
4. عقم أحد الزوجين أو مرضه مرضاً مزمناً يؤثر على الحياة الزوجية.
5. الخيانة الزوجية من أحد الطرفين؛ خاصة لما يتعلق الأمر بخيانة الزوجة.
6. الفارق العمري الكبير بين الزوجين.
7. تدخل الأهل والأقارب في خصوصيات العلاقات الزوجية.
8. عمل المرأة أحياناً قد يؤثر على العلاقة الزوجية مما يسبب في الطلاق.
9. وجود أطفال للزوج أو الزوجة من زواج سابق.

أنواع الطلاق وأشكاله:

للطلاق أنواع مختلفة وباعتبارين رئيسيين؛ سواء في الشريعة الإسلامية أو في القانون الجزائري.

فالاعتبار الأول: باعتبار من يوقع الطلاق؛ فهو ثلاثة أنواع:

الأول- الطلاق الذي يوقعه الزوج: وهو الذي يكون بإرادة الزوج ولو من غير رضا الزوجة؛ لكن من غير ظلم وتعسف فيه؛ وإنما بسبب من الأسباب التي تجيز الطلاق شرعاً وقانوناً؛ ويُطالبُ الزوج شرعاً وقانوناً في هذه الحالة بدفع المهر والمتعة للزوجة تطييباً لخاطرها[9].

الثاني- الطلاق الذي توقعه الزوجة: ويسمى الخلع: وذلك عندما

لا تطيق المرأة الاستمرارية مع زوجها في العشرة الزوجية؛ بسبب سوء خلقه أو ضعف في دينه، وخافت على نفسها ألا تتقي الله فيه؛ فجوَّزَ لها الشرع والقانون مخالعة زوجها بشرط أن ترد له ما دفع لها من المهر أو أقل منه أو أكثر على حسب الاتفاق؛ لكن برضا زوجها عن ذلك[10]؛ وإن كره الشرع للزوج أن يأخذ أكثر مما أعطاها[11].

الثالث- الطلاق الذي يوقعه القاضي: ويسمى التطليق؛ وهو الطلاق الذي يرى القاضي في إيقاعه مصلحة للأسرة والزوجة؛ لوجود سبب من أسباب ذلك؛ كالإعسار في النفقة أو الظهار والإيلاء أو عدم الكفاءة أو الغياب الطويل أو السجن أو الإساءة غير المطاقة...[12].

أما الاعتبار الثاني: فباعتبار نوع الطلاق من حيث أحقية الزوج في إرجاع زوجته وعدمها؛ وذلك أن الإسلام راعى نفسيات الناس وطبائعهم فأعطاهم فرصاً تسمح لهم باستدراك الأخطاء وعدم معاودته؛ وكلما تكرر الخطأ . الطلاق . كلما غُلِّظَتِ العقوبة والحكم؛ فيقسم إلى ثلاثة أقسام: رجعي، وبائنٍ بينونة صغرى، وبائنٍ بينونة كبرى[13].

الأول- الطلاق الرجعي: وهو الطلاق الذي يوقعه الزوج باختياره بلفظ الطلاق مرة واحدة؛ ويكون رجعياً ما دامت الزوجة في العدة . على حسب المرأة . فلا ينتهي العقد بينهما ولا تقطع العلاقة ولا يصبحان أجنبيان؛ بل يعتبران زوجان ما داما في العدة؛ ويجوز للزوج مراجعة زوجته في العدة من غير مهر ولا عقد ولا شهود[14].

ودليل كونه رجعياً ما جاء في قوله تعالى في سورة البقرة؛ وهي قوله تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۖ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿228﴾ ﴾ البقرة 226، أي أن للزوج ارتجاع زوجته ما دامت في العدة[15].

الثاني- الطلاق البائن بينونة صغرى:

وهو الطلاق الذي يكون بحكم القاضي، أو الطلاق الأول والثاني إذا انتهت عدة الزوجة ولم يراجعها الزوج؛ وفي هذا النوع يصبح الزوج أجنبياً عن زوجته ولا يجوز له مراجعتها إلا برضاها ومهر جديد وعقد جديد؛ وذلك لأن عدم تراجعهما في مدة العدة. والتي قد تزيد على ثلاثة أشهر. دليل على شدة النفرة بينهما فلا بد من تجديد العهد والميثاق مرة أخرى[16].

وهو الأمر الذي أقرته المادة (50) من القانون الجزائري للأسرة؛ بقولها: «من راجع زوجته أثناء محاولة الصلح لا يحتاج إلى عقد جديد؛ ومن راجعها بعد حكم الطلاق يحتاج إلى عقد جديد»[17].

الثالث- الطلاق البائن بينونة كبرى:

وهو الطلاق الذي يكون بعد الطلقة الثالثة؛ وبالتالي تنتهي العلاقة بين الزوجين إلا إذا تزوجت المرأة رجلاً آخر فإنه يحل لزوجها الأول مراجعتها؛ وهو ما بينه الله تعالى في سورة البقرة في الآيتين: «227» و«228»؛ وهما قوله تعالى: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿229﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ

اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿230﴾﴾، وهذا الحكم كعقوبة نفسيَّة للزوج الأول من جهة؛ ومن جهة أخرى فإن تكرار الطلاق ثلاث مرات بينهما؛ دليل على عدم قدرتهما على التوافق الأسري؛ فالفراق قد يكون خيرلهما؛ وقد ييسر الله لكل منهما من يتوافق معه أكثر؛ كما أشار لذلك الله سبحانه في الآية «129» من سورة النساء[18].

وهو الطلاق الذي أشارت له المادة (51) من قانون الأسرة الجزائري بقولها: «لا يمكن أن يراجع الرجل من طلقها ثلاث مرات متتالية؛ إلا بعد أن تتزوج غيره وتطلق منه أو يموت عنها بعد البناء»[19].

من خلال هذا الطرح نجد بأن الطلاق أنواع مختلفة وباعتبارات متباينة؛ هي كفيلة بأن تختلف آثارها باختلاف أنواعها؛ سواء على أفراد الأسرة أو غيرهم؛ فالطلاق الذي يوقعه الزوج قد تكون آثاره السلبية على الزوجة والأبناء أكثر منه عليه والعكس بالنسبة للطلاق الذي توقعه الزوجة؛ وهذا بغض النظر عن نوعه الشرعي؛ لأننا نرى في الواقع قليلاً من يراعي هذه الحيثيات؛ ولهذا السبب . عدم مراعاتها . أصبحت نِسَبُ الطلاق تنتشر في المجتمع. ومنه تتزايد آثاره على الفرد والمجتمع.

آثار الطلاق على الأبناء والأسرة والمجتمع:

ما دام أن الطلاق هو تصدع وانشقاق غير طبيعي وغير عادي في الأسرة؛ فإنه لا بد أن تكون له آثار سلبية سواء على المستوى الخاص أو العام؛ بداية من الأطفال ثم الزوجين ثم المجتمع ككل.

أولاً- آثار الطلاق على الأبناء:

وهم الضحية الأولى والأكثر تضرراً من الطلاق؛ كما قال الأستاذ ناجي قاسم:

«الأطفال هم أول ضحايا الطلاق سيفقدون أهم عوامل الاستقرار في حياتهم؛ إنه حضن الأسرة سيحرمون من حنان أحد الوالدين وعطفه رعايته وغالباً يكون الأب باعتبار الحضانة للأم»[20]؛ ومن أهم الآثار التي يخلفها الطلاق على الأبناء ما يلي:

01. حدوث صراع عاطفي عندهم بسبب عدم القدرة على الانحياز لأحد الوالدين دون الآخر، مما يسبب لهم صراعاً نفسياً داخلياً[21].

02 . معاناة الخوف والقلق والاضطراب من مستقبل الأسرة وما يلحقها من الطلاق22.

03. الشعور بالإحباط والحرمان العاطفي: وذلك عندما تستمر الخلافات الزوجية حتى بعد الطلاق؛ وهي من أخطر عقبات الطلاق وآثاره على الأطفال؛ لأن هذه الخلافات تؤثر على توافقهم وتربيتهم وعلاقاتهم مع الوالدين[23].

04 . الاستغلال من أحد الزوجين: فقد يستغل أحدُ الطرفين الأطفال لابتزاز الطرف الآخر أو الانتقام منه أو إذايته بأسلوب أو بآخر[24].

05 . التعرض للإهمال: فقد يتعرض الأطفال إلى الإهمال من الأم أو التخلي بسبب البحث عن الكفاية المادية، أو في حالة الزواج مرة أخرى[25].

أي بسبب عجز الأم عن تلبية الاحتياجات المادية للأطفال؛ خاصة إن لم تكن عاملة لأن أعباءها سوف تتزايد مع قلة الدخل أو عدمه26.

06 . ضعف العلاقة مع أحد الوالدين: أي عدم الاتصال والتعامل بحرية مطلقة مع أحد الوالدين؛ كما كان قبل الطلاق لعدم تواجدهم في أسرة واحدة وتحت سقف واحد؛ خاصة عند عدم التفاهم على التربية وتدخل القانون في إعطاء حق الزيارة للطرف الآخر[27].

07 . تغيير بيئتهم الاجتماعية:

سواء بالانتقال إلى بيت جديد أو مدرسة جديدة، وتغيير الأصدقاء والرفاق والمحيط؛ وهذا ما يؤدي إلى بهم إلى صعوبة التوافق النفسي والاجتماعي مع المجتمع والمحيط الجديدين[28].

08 . ويلخِّص أحد الكتاب تأثير الطلاق على المراهق بقوله:

«ويقع طلاق الوالدين على الطفل في سنوات الطفولة المتأخرة وبداية البلوغ وقع الصاعقة التي تفسد هويته، وتحرمه من إشباع حاجة للانتماء إلى الأسرة، وتنمي عنده القلق والاضطراب الانفعالي...وتدفعه إلى الانسحاب والانزواء والاستغراق في أحلام اليقظة، أو إلى التمرُّق والمروق والعدوان والتدخين وإدمان المخدرات والانغماس في العلاقات الجنسية الشاذة، ويغدو مهيأ للجناح والعصاب؛ بخاصة إذا تعرض إلى لمضايقات من الأقران، وشعر بالذنب والعار والحدة والغربة معهم بسبب طلاق والديه...»[29].

09 . ومع هذا فالطلاق يؤثر على المراهقين الذين وقع الطلاق بين والديهم وهم في مراحل النمو الأولى أكثر من تأثيره على المراهقين؛ لأنه يحرمهم من إتمام الإشباع العاطفي الضروري في هذه المرحلة من العمر؛ وهذا ما أثبتته بعض الدراسات التي أجريت عل المراهقين من المرحلة المتوسطة والثانوية ممن طلقت أمهاتهم لما كانوا صغاراً فوجد بأن استعدادهم للقلق والتوتر أكثر من المراهقين الذين عاشوا طفولتهم مع والديهم[30].

آثار الطلاق على الأسرة:

بما أن الطلاق نشأ عن داخل الأسرة وبسبب سوء العلاقة والتوافق بين الزوجين خاصة؛ فإنه مهما كان حلاً نهائياً أو مؤقتاً بتراضٍ أو غيره إلا انه يبقى له أثرٌ يختلف باختلاف الأسرة

واختلاف السبب واختلاف أفراد الأسرة أي من وجود الأطفال وعدمهم؛ ومن بين الآثار التي تصيب الأسرة:

1. صعوبة التوافق: لكلا الزوجين مع الحالة والمجتمع الجديد الذي أصبحا فيه بعد الطلاق والانفصال[31].

2. تشتت أفراد الأسرة وتفرقهم: سواء الزوجين أو الأطفال مما يعرقل سير نمو حياتهم النفسية والعلائقية نمواً صحيحاً[32].

3. الصدمة النفسية التي قد تواجه كلا الزوجين؛ خاصة المرأة لما يسبب لها من معاناة نفسية واجتماعية في المستقبل؛ مما قد يؤثر على مستقبلهما لدرجة أن بعضهم يأخذ قراراً بعدم معاودة محاولة الزواج مرة أخرى.

آثار الطلاق على المجتمع:

إنه مما لا شك فيه إن آثار الطلاق لا تنحصر على أفرادها الأساسيين من الزوجين والأطفال، بل ولا حتى العائلة الكبيرة فقط؛ وإنما تتعداه الآثار إلى المجتمع الصغير أو الكبير حتى؛ لأن المجتمع ما هو إلا مجموعة من الأسر بصيبه ما يصيبها ويتأثر بما تتأثر به هذه الأسر سلباً وإيجابا؛ ومن بين الآثار المترتبة على الطلاق التي تمس المجتمع:

1. توتر العلاقات بين الأسرتين المتصاهرتين، إن لم يؤد إلى العداوات وحبِّ الانتقام من ذاك الطرف أو ذاك[33].

الصراع العائلي وعلاقته بالطلاق وأثره على أطفال الطلاق

أولاً: مراحل الصراع العائلي:

أي كيف تتطور الخلافات العائلية قبل أن تصل إلى الطلاق؟ هناك أربعة مستويات رئيسة تحدث عنها الأستاذ كمال إبراهيم مرسي؛ وهي كالتالي:

المستوى الأول: وهي مرحلة الخلافات البسيطة التي لا تستمر طويلاً ولا يحث فيها لا حقد ولا انتقام؛

وإنما بعض الغضب والتذمر دون التأثير على ثقة كل منهما؛ ولا على الجو العائلي والتفاعل الزواجي.

المستوى الثاني: تشتد الخلافات بعض الشيء بين الزوجين؛ وقد تستمر غالباً إلى ستة أشهر؛ مما قد يثير النفور والعداوة والتذمر والتجريح والاتهامات والضرب والسب أحياناً؛ لكن مع ذلك تبقى وسائل الاتصال بينهما من أجل الحل قائمة حتى ولو ذهبت الزوجة عند أهلها؛ لكنها تنتظر من يتدخل من أجل الإصلاح.

المستوى الثالث: وفيها تشتد الخلافات أكثر وأكثر وتزيد على ستة أشهر؛ مما يؤدي إلى تغير المشاعر وزيادة الغضب والتذمر والحقد والغضب، واتساع الفجوة بينهما وانتشار الخلافات واضطراب التواصل وكثرة الهجر والخصام لمدة طويلة؛ وتصبح ردود أفعالهما عبارة عن مشاكل تتسم بالهجوم والهجوم المضاد.

المستوى الرابع والأخير: تشتد الخلافات أكثر مما سبق، ويعم النفور والحقد والرغبة في الانتقام بالسب والإهانة بل قد تصل إلى حد الضرب ؛ وتصبح الحياة بينهما جحيماً؛ فيسعى كل منهما إلى الهروب ويرفضان الصلح؛ بل يرفعان قضيتهما إلى القضاء؛ حتى إنهما يوكلان من يدافع عنهما من المحامين[34].

وقد لخص الدكتور البروفيسور «طارق الحبيب» مراحل الوصول الطلاق بناء على تطور الأزمات والصراعات العائلية في ثلاث مراحل أساسية؛ وهي:

الأولى- فقدان الإحساس الإيجابي بين الزوجين: ومن مميزاته وجود النفور والبعد عن بعضهما والانشغال في وجود بعضهما بالتزامات البيت والأطفال؛ وكل ذلك من أجل إرسال رسائل سلبية غير مباشرة للطرف الآخر.

الثانية- مرحلة المشاحنات والصدمات الخفيفة المتكررة: أي المشاكل الصغيرة؛ والتي قبل هذه المرحلة كانت تعتبر أشياء بسيطة وعادية تمر مرَّ الكرام؛ بل كانت تقرب الخلاف وتزيد الحب تماسكاً؛ إلا أنها أصبحت كأنها كبائر؛ بسبب وجود عدم الرضا عن بعضهما أو أحدهما بسبب النفور السابق.

الثالثة- مرحلة جمود المشاعر بين الزوجين: أي غياب المشاعر حتى الإحساس السلبي تجاه الآخر غير موجود؛ لدرجة الإحساس بأن الطرف الآخر غير موجود معه أو غير موجود في حياته حتى[35].

وبعد هذه المرحلة إذا استمرت الخلافات ولم تعد المياه إلى مجاريها. رغم صعوبتها في هذه المرحلة. فإنه يقع الطلاق؛ لذلك من اللازم على الزوجين الحرص على معالجة النزاعات والخلافات ما داما في المرحلة الأولى قبل أن تتطور إلى المرحلتين اللاحقتين.

ثانياً: الصراع العائلي وأثره على جنوح الأحداث:

بداية أنه لا تخلو علاقة عائلية من ظهور خلافات أو اختلافات بين الزوجين؛ مهما كانت ثقافتهما وتدينهما...؛ خاصة في السنوات الأولى بسبب قلة خبرة كلٍ منهما بالآخر؛ إلا أن الشيء غير الطبيعي وغير العادي في الأسرة هو استمرار الخلافات الزوجية وتكررها بصورة كبيرة حتى تؤثر على العلاقات الخاصة والعامة؛ بل حتى على جوانب اتزان أفراد العائلة النفسي والاجتماعي والصحي؛ لذلك سوف نركز على هذه الاختلافات التي تتحول إلى صراعات عائلية تؤثر على أفراد الأسرة؛ خاصة الأطفال والمراهقين.

لذلك نقصد بالصراع العائلي تلك الخلافات الهدامة التي تؤدي إلى

الخصام والعداوة والصراع والانتقام؛ فهي خلافات مطْلقة ليس فيها تفاوض ولا تفاهم ولا حلول وسط تخلو فيها العلاقات الزوجية من المودة والرحمة وتجعل مواقف التفاعل الزواجي مواقف بغيضة إلى نفس كل من الزوجين؛ وتدفعهما إلى سوء التوافق الزواجي؛ وتنبئ بهدم العلاقة الزوجية ووقوع الطلاق[36].

لذلك كلما كان التقدير والاحترام المتبادل بين الزوجين؛ كان الجو مناسباً لتنشئة الأبناء ورعرعتهم في جو مليء بالدفء والعطف والحنان مما ينعكس على نفسية الأطفال ونموهم الطبيعي؛ والعكس بالعكس.

- فلذلك الأم التي تلقى التقدير والاحترام من زوجها ومحيطها سوف تكون أما مؤدية لأدوارها في الأسرة والعائلة على أتم وجه؛ مما يجعلها تمنح الطفل فرصة لكي يُكوِّن الصورة التي يكوِّنها عن الكبار عموماً؛ أما إذا كانت الأم غير متوافقة مع زوجها وغير مقدرة فسوف تكون صورتها صورة سلبية عن الكبار[37].

كذلك الدكتور بدر إبراهيم جعل التفكك الأسري، وكثرة المشاحنات والصراع داخل المنزل من أسباب الجنوح لدى المراهق»[38].

وهذا ما توصل إليه الأستاذ مصطفى زيدان حيث جعل الجو السائد في الأسرة من العوامل التي تؤثر في النمو الاجتماعي؛ ومنه في السلوك الخارجي؛ فالأسرة المستقرة المطمئنة تعكس استقرارها وطمأنينتها على المراهق فينمو نمواً طبيعياً؛ والعكس بالنسبة للأسرة غير المستقرة التي يسودها التوتروحب الانتقام والغضب لأتفه الأسباب[39].

وقال الدكتور العربي بختي تحت عنوان «أثر التصدع العائلي في جنوح

الحدث»: «يستنتج من البحوث التي أجريت في هذا المجال أن عائلة الحدث إذا لم تتمكن من توفير جو مناسب يتحقق فيه إشباع ميوله وتلبي حاجاته الأساسية المتمثلة في الحب والعطف والحنان والأكل والملبس والمسكن والخدمة الصحية بشكل ملائم؛ فإن ذلك سيقوده عاجلاً أو آجلاً إلى الجنوح...»[40].

وقال مرة أخرى تحت عنوان «توفير الجو العاطفي»: «... ومن ناحية أخرى فإن حالات الشجار المستمر والخلافات المتواصلة بين أفراد العائلة وخاصة الوالدين...فإنه يحدث اضطراباً عنيفاً في نفوس الأبناء ويسهم في تمزق حياة الولد الداخلية...»[41].

وقال الدكتور عبد الكريم بكار: «وهكذا كلما ساءت أحوال الأسرة كان لنا أن نتوقع ارتفاع درجة العدوانية والتنمُّر لدى أبنائها»[42].

وتقول الدكتورة بدرة ميموني: تحت عنوان: العوامل العائلية والنفسية للجنوح: «تفكك الأسرة؛ الطلاق، الصراعات الدائمة، والعنف والظروف المعيشية المنحطة؛ كل هذا يفرز صراعات وحرماناً وتشويهَ الصوَّرِ التقمصية مما يفقد الشباب الثقة في نفسه وفي أسرته وفي مجتمعه»[43].

وكما خلص أحد الباحثين إلى القول: «وأنه كلما زاد التماسك الأسري زادت قدرة الأسرة على ممارسة الضبط أو عزل التيارات المنحرفة، ويعد فشل الأسرة في قيامها بعملية الضبط الاجتماعي ناتجاً عن عدة أسباب لعل أهمها: التفكك الأسري وسوء العلاقات الوالدية وكثرة المشكلات داخل الأسرة وعدم التزام الأبوين بالقيم المحمودة وإهمال تربية الأبناء وعدم تحمل المسؤولية الأسرية والاتجاهات السلبية بين الوالدين وأبنائهم»[44].

وقد صرح الأستاذ كمال إبراهيم مرسي بأن الخلافات الزوجية واضطراب العلاقة بين الوالدين تؤثر على النمو النفسي للطفل أكثر من تأثير الطلاق وما يحدث بعده[45].

من خلال كل هذه الدراسات والاستنتاجات من هؤلاء الباحثين ندرك أهمية العلاقة العائلية داخل الأسرة على الأبناء إيجابا وسلباً؛ فكلما كان التوافق الإيجابي والتفاهم بين الزوجين كلما أثر تأثيراً إيجابياً في الأبناء وكان ذلك التوافق حصناً منيعاً من الجنوح والانحراف؛ والعكس صحيح.

الخلاصة:

من خلال هذا البحث المبسط حول موضوع الطلاق ندرك بأن الطلاق يعتبر قضية المجتمع كله؛ وليس قضية الزوجين فقط؛ وأن أي خلل في تطبيقه تؤدي تبعاته وآثاره إلى الضرر على المجتمع والأسرة والأطفال؛ لذلك لا بد للزوجين قبل أخذ القرار النهائي لعقد الطلاق أن يأخذوا بعين الاعتبار ما ينجر على قرارهما؛ من آثار سلبية وصدمات نفسية ربما كان بالإمكان كفها بصبرهما أو تصابرهما؛ ولو من أجل أبنائهما.

كما أن تأثير الطلاق على الأبناء في مرحلة الطفولة المبكرة أكثر منه في المراحل اللاحقة كالمراهقة وغيرها.

الهوامش:

1 - ينظر: أحمد محمد مبارك، 1992م، علم النفس الأسري، ص211.

2 - (ابن منظور، لسان العرب، ص2693).

3 - (علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، ص 146).

4 - (أبو عبد الله محمد الأنصاري، شرح حدود ابن عرفة، 1993، ص271).

5 - (محمد سكحال، المهذب من الفقه المالكي، 2012م، ج02، ص73).

6 - (قانون الأسرة الجزائري، 2007، ص08).

7 - (ينظر: أحمد محمد مبارك، 1992م، علم النفس الأسري، ص212).

8 - (أحمد محمد امبارك، علم النفس الأسري، 1992م، ص215).

9 - (كمال إبراهيم مرسي، العلاقات الزوجية والصحة النفسية، 1995، ص277).

10 . ليس كما هو الحال في القانون الجزائري المعدل سنة 2005 حيث لا يشترط رضا الزوج في الخلع؛ مما سبب ارتفاع نسب الخلع موازاة مع نسب الطلاق في المجتمع الجزائري.

11 - (كمال إبراهيم مرسي، العلاقات الزوجية والصحة النفسية، 1995، ص278).

12 - المصدر نفسه.

13 - (القاضي عبد الوهاب، المعونة، 1999م، ج02، ص825).

14 - (كمال إبراهيم مرسي، العلاقات الزوجية والصحة النفسية، 1995، ص278 و279).

15 - (القاضي عبد الوهاب، المعونة، 1999م، ج02، ص826).

16 - (كمال إبراهيم مرسي، العلاقات الزوجية والصحة النفسية، 1995، ص279).

17 - (قانون الأسرة الجزائري، 2007، ص08).

18 - (كمال إبراهيم مرسي، العلاقات الزوجية والصحة النفسية، 1995، ص279).

19 - (قانون الأسرة الجزائري، 2007، ص08).

20 - (ناجي بلقاسم علالي؛ الطلاق في المجتمع الجزائري؛2013؛ ص: 168).

21 - (أحمد محمد مبارك، 1992م، علم النفس الأسري، ص217).

22 - المصدر نفسه.

23 - (كمال إبراهيم مرسي، العلاقات الزوجية والصحة النفسية، 1995، ص329 و 330).

24 - (أحمد محمد مبارك، 1992م، علم النفس الأسري، ص217).

25 - (أحمد محمد مبارك، 1992م، علم النفس الأسري، ص217).

26 - (كمال إبراهيم مرسي، العلاقات الزوجية والصحة النفسية، 1995، ص330).

27 - المصدر نفسه.

28 - المصدر نفسه.ص329.

29 - المصدر نفسه. ص333.

30 - المصدر نفسه. ص 331.

31 - (أحمد محمد امبارك،علم النفس الأسري، 1992م، ص216)

32 - المصدر نفسه.

33 - المصدر نفسه.

34 - (كمال إبراهيم مرسي؛ العلاقات الزوجية والصحة النفسية في الإسلام؛ ص240و241).

35 - (طارق الحبيب؛ في حصة «النفس والحياة» على قناة «الرسالة الفضائية» بعنوان: «على أعتاب الطلاق» بتاريخ 03 أبريل 2011م).

36 - (كمال إبراهيم مرسي؛ العلاقات الزوجية والصحة النفسية في الإسلام؛ 1995م؛ ص238و239).

37 - (محمد مصطفى زيدان؛ النمو النفسي للطفل والمراهق؛ 1972؛ ص129).

38 - (بدرإبراهيم الشيباني؛ سيكولوجية النمو؛ 2003م؛ ص220).

39 - (محمد مصطفى زيدان؛ النمو النفسي للطفل والمراهق؛ 1972؛ ص161).

40 - (العربي بختي؛ جنوح الأحداث في ضوء الشريعة وعلم النفس؛ 2014م؛ ص 114) .

41 - (المصدرنفسه.؛ ص 125).

42 - (عبد الكريم بكار؛ المراهق كيف نفهمه؛ 2010؛ ص117).

43 - (بدرة ميموني؛ الاضطرابات النفسية والعقلية عند الطفل والمراهق؛ 2011م؛ ص248).

44 - (علي بن سليمان؛ الواقع الاجتماعي لأسر الأحداث العائدين للجنوح؛ 2006م؛ ص32).

45 - (كمال إبراهيم مرسي، العلاقات الزوجية والصحة النفسية، 1995، ص337).

خبوت فكرة المهدوية في الغرب الإسلامي
-الموحدون نموذجا-

بزوجي وليد
باحث أكاديمي
مكلف بمصلحة الثقافة الإسلامية
- سيدي بلعباس

قدم ابن تومرت نفسه كمؤسس للدولة الموحدية على أساس أنه المهدي المنتظر الذي «يملأ الأرض قسطا كما ملئت ظلما و جوراً» ولكن مهدوية ابن تومرت كانت من الحركات «المهدوية القليلة النادرة في الفكر السني»[1]، ما يفسر ذاك أيضا أن المهدوية ابن تومرت امتزجت عند أهل المغرب آنذاك بصفة الولي الصالح، الذي نتج عن التصوف المنتشر في بلاد المغرب وفي ذهنية المغاربة، لذلك فإننا نرى مزجاً في سيرة ابن تومرت في تقديم نفسه،«كولي من أولياء الله وفقيه وعالم كبير»[2] في مزج صارخ بين المهدية والعصمة والكرامة، لقد كان يمزج بين المهدية التي كانت تقدمه في هيئة الرجل الثائر على الدولة، وكصاحب كرامة، يسلم الناس القيادة له، فيصبحون طوع يديه ولسانه، ليوجههم حيث يشاء.

1 - المهدوية: الفكرة والدولة

إنّ ادعاء ابن تومرت أنه المهدي (الزعيم المرسل من الله ومعيد النّظام)،

قضية هامة أخرى، ومع هذا فإن ذلك كان أقرب إلى أن يكون اعتقادًا شيعياً منه سنياً، فإن ابن تومرت لم يكن يفكر دون شك في إقامة أي صلة بالشيعة في المشرق، بل في استقطاب الاحترام المتأصل في نفوس البربر للأولياء والصالحين (الاحترام الشعبي اليوم للأولياء Marabouts دليل ذلك)[3]، بل مثلت المهدوية التي ادعاها ابن تومرت جدلاً فكرياً باعتباره مبدأ دخيلاً على المغرب السّني المالكي في عصر المرابطين، وهو ما تسبب ابتداء في رفض أهل المغرب لفكرة المهدوية التي أراد ابن تومرت أن يؤسس من خلالها كيانا يستولي به على الإرث المرابطي، و لكن هذا الادعاء دون سائر المبادئ التي جاء ابن تومرت عدا التفكير المطلق للمخالفين أو المشككين في المهدوية، شكل في الحقيقة إحراجا للذهنية السنية المغاربية كما للدولة الموحدية[4] التي كانت تمثل مشروعا نهضوياً بديلاً عن المشروع المرابطي.

ظل ادعاء المهدوية يمثل خلافا صامتاً بين القبائل المصمودية، إذ كان قطاع واسع من هذه القبائل شاكا شكا يصل إلى الرفض لزعامة ابن تومرت الدينية والإيديولوجية مما حذا بابن تومرت إلى اتخاذ خطوات جريئة على نطاق الأتباع وكذا على النطاق الجغرافي.

عمد إزاء هذا الرفض على الغدر بقبيلة هزميرة وتصفية ما يزيد عن خمسة عشر ألفاً منهم، ومعاملتهم معاملة الكفار، ليس هذا فحسب بل إن ابن تومرت عمد إلى تصفية الفقيه الإفريقي -أحد المقربين من ابن تومرت- بسبب استنكاره للمجزرة، كان استنكار الإفريقي للمجزرة دليلاً على أن المعارضة لقيادة ابن تومرت المطلقة في

شكل المهدوية وصلت إلى نخبة النخبة، فنجده و مباشرة بعد ذلك، يقوم بمّد يده إلى ما يلي تينملل من القبائل والأراضي تلافيا لأي حركة انتقامية5، ضده، وربما لشغل المعتبرين من المجزرة عن البقاء دون عمل ذي شأن مما قد ينجرّ عنه، معارضة أخرى يوجه ربما يكون بالعنف الذي و أد به ابن تومرت الحركة المعارضة في مهدها.

لقد شكلت المهدية بالنسبة للدعوة الموحدية تلك الفكرة التي التفّ حولها المصامدة، فكانت الفكرة الدينية التي بذلوا أنفسهم في سبيلها دون هوادة؛ لقد ضرب ابن خلدون[6] في مقدمته مثلاً بهؤلاء الموحدين، وكيف أن الدعوة الدينية حملتهم على مجابهة الصعاب، وركوب الموت، واستهانتهم بذلك في سبيل بلوغ مرادهم.

لقد جعل ابن خلدون أصل الدّين هو الأساس في تكوين الدول العظيمة، وجعل فصلاً آخراً يثبت دور الدعوة الدينية في الزيادة في أصل قوة الدولة ويفسر ذلك قائلاً «والسّبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقم لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساوي عندهم، وهم مستميتون عليه»[7]، ويواصل ليضرب مثلاً بما وقع للعرب صدر الإسلام في الفتوحات، وكما حصل بين المرابطين والموحّدين.

هذه الفكرة المهدوية كانت سبباً في الدفع بالموحدين سلطة ومحكومين لإقامة الدولة على أساسها، ولقد ظلت تشكل رغم إحراجها للعقلية السنية المغربية، المرجع الذي تدور حوله الدولة.

يعالج مالك بن بني قضية الفكرة ودورها في الحضارة، جاعلاً الثانية نتيجة للأولى إذ يقول بأن: «الحضارة نتاج فكرة جوهرية تدفع بها في التاريخ»[8] ويزيد هذا المعنى توضيحا ليجعل كلامه هذا قانونا سارياً على كل حضارة دخلت أو تدخل التاريخ حيث «إنّ الحضارة ما هي نتائج فكرة جوهرية، تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدّفعة التي تدخل به التاريخ»[9]، وعلى هذا الأساس فإنّ الفكرة المهدوية، كانت الفكرة الموجهة في الدولة، فالثورة الموحدية على المرابطين كانت في الأساس فكرة التوجيه التي بثها ابن تومرت على أنه المهدي الذي يصلح الوضع الذي كان في نظره فاسداً يستوجب ظهور المهدي الذي قال بأنه يظهر ببلاد المغرب[10]، لقد حدد ابن تومرت بعقيدته التلفيفية الهدف المنشود الذي ينبغي السير نحوه، ومن ثم فإن المهدوية كانت الدفعة الدينية التي مثلت فكرة التوجيه للإنسان الموحدي، الذي -بدوره- اكتسب من هذه الفكرة «معنى الجماعة ومعنى الكفاح»[11] هذه الجماعة التي مثلت في نظرية ابن تومرت «حزب الموحدين»[12] وأما الكفاح فهو الذي قدم ابن تومرت فيه نفسه كآمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر[13]، في أقاليم الدولة المرابطية ولكن إلى حين.

لقد حمل ابن تومرت أثناء عودته إلى المغرب من رحلته إلى المشرق، مشروعاً الوحدة المركزية الذي يمثل بالنسبة للخلافة الموحدية -ابن تومرت وجماعته المقربون- نقيضاً «لعوامل الفرقة التي يعاني منها المشرق سواء من الناحية الفكرية المذهبية والعقائدية،حيث تعشش الملل والنحل أو من الناحية السياسية حيث

تتكاثر الدويلات والسلطنات»[14]،لذاك نجد ابن تومرت يرجع من ملالة مع عبد المؤمن بن علي مصرحا له بأن العلم الذي تزيد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب»[15]،إننا نرى في مرحلة ابن تومرت مكونات عقيدته،هذه الرحلة التي لم يكتسب فيها ابن تومرت علوماً بقدر ما اكتسب من خلال تجواله،كيفية ترجمة العقيدة الدينية إلى أفكار سياسية[16]،في شكل دعوته الدينية المعروفة، نستطيع أن ندري أن العلم الذي يقصده ابن تومرت من خلال كلامه مع عبد المؤمن كان يمثل بداية عملية حشد للكفاءات البشرية المناسبة، لمشروعه السياسي، الذي يبدو أنه واضحاً في رؤية ابن تومرت.

وضوح الرؤية هذا تمثل في تلك الحدة المتزايدة في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، الذي تطور إلى إفحام لفقهاء المرابطين في مراكش، ليتحول إلى حزب مسلح ضد الدولة المرابطية في مرتفعات تينملل المصمودية حتى وإن لم تكن الدعوة الموحدية ممثلة في فكرة التومرتية قامت على أساس «نبوة أو دعوة حق»[17] كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون، فإنّ هذه الدعوة كانت في إطار العقيدة الدينية، لقد قامت هذه الدولة –الموحدية- على أساس التوحيد الذي غلب على وصف الدولة، لا شيء إلا لأن التوحيد -في نظر ابن تومرت- هو العقيدة الدينية التي قامت عليها الدولة لتسمى بالموحدية.

لا يمكن اعتبار ابن تومرت في إطار النظرية الخلدونية صاحب دعوة حق مثلا ولكن عقيدة هي التي تمكن من خلالها «من توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام»[18].

لقد كانت المهدوية بديلاً عن الوحي الذي يهبّ الناس لنصرته،

في صورة الموحدين، إنها الروح التي استمد الموحدون من خلالها الدفعة الأولى التي صبغت بدايات الموحدين، بأعنف المجازر ضد -الكفار المناوئين- سواء من المرابطين أو حتى من الذين يظهرون بعض التذمر من تبعات فكرة المهدوية في إطارها السني والتي حاول ابن تومرت فرضها كعقيدة جديدة ألزم الناس باتباعها، يظهر ذلك جليا في غدر ابن تومرت بهزميرة، كما يظهر من خلال تمييز البشير الونشريسي، وحتى من خلال الاستيلاء الموحدي على وهران أو العاصمة مراكش.

إنّ هذا العنف الشديد، قد يرجع سببه إلى أن ترقب ظهور المهدي، وإن كان حقيقة مقررة عند المغاربة -السنة المالكية- رغم كونه «ثابتا بالوثائق الحديثة والمناقشات الكلامية، يصل البتة إلى أن يتقرر كعقيدة دينية، ولم يبد قط عند أهل السنة إلا كحلية أسطورية لغاية مثلى...»[19] هذه الغاية المتمثلة في إسقاط سلطان المرابطين القائم.

إننا نتساءل عن مقصد ابن تومرت من ادعاء المهدوية، كان يكفي في الإطار المرابطي السّني أن يقوم ابن تومرت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأن «يكون محافظا مناصراً للدولة»[20]، خاصة وأن الكثير من المؤرخين يشيرون إلى لقاء جرى بين ابن تومرت والغزالي، لقد «كان الغزالي داعية في خدمة سلطة قائمة، رغم هذا وضع أسس دعاية قوية ناجحة»[21] لقد ظل التجاذب قوياً بين ابن تومرت صاحب المرشدة -عقيدة الدولة- ورفض أهل السنة لها.

لقد كانت المبادئ التي دعا إليها ابن تومرت، تجد مسوغات في التراث المغربي السني، ولكن «العنصر الوحيد

الذي رفضه أهل السنة فيما بعد بكيفية قطعية هو القول بظهور المهدي»[22]، ولقد كان هذا المبدأ سبباً من أهم أسباب انحلال الدولة -كما سنرى- غير أن مظاهر الصحة تغلب عليه في طور الروح -كما يصنفه مالك بن نبي- ولكن تحول العالم الذي قامت عليه الدولة، نقصد الفكرة الدينية فعل فعله كعامل من عوامل الانحلال «مع مرور الزمن والبعد عن حماسة دور النشأة»[23]،إذن كيف سيتطور هذا الصّراع داخل جسد الدولة بمرور الزمن؟ وكيف ستنتهي مآلات هذه الفكرة؟ وإذا فرضنا كون هذه المهدوية كانت عامل انحلال، فهل سيكون إلغاؤها مثلاً مدعاة لاستعادة الدولة لهيبتها في إطار المنظومة السنية المغربية؟

2 - تطورات الرفض لفكرة الدولة:

لقد كان التوحيد أهم شيء قامت عليه دولة الإسلام عند مبعث النبي محمد ﷺ، إذن فالتوحيد هو جوهر الإسلام الذي قام عليه ولكن الموحدين غلوا في هذا المبدأ بحسب عقيدتهم هم لا بحسب التوحيد المبدأ الإسلامي البسيط.

لقد جعلوا التوحيد هو عقيدتهم، وبالتالي فإنهم اعتبروا الموحّد هو من آمن بعقيدة المهدي، ولم يشكك في شيء مما قال به ابن تومرت، لقد كان ذلك أساس معاملاتهم مع المخالفين لهم وكأن عقيدة المهدي كانت جديدة وباعثة للضمير الإسلامي بحيث أن من آمن بها فهو موحّد مؤمن، ومن لم يدخل فيها فهو مجسم كافر.

كان هذا المبدأ الديني ذا وظيفة سياسية بامتياز، إذ رمى به الموحدون إلى إظهار المرابطين «بمظهر الكفرة الخارجية على الدين، ومن ثم يضمن خروج رعيتهم عليهم»[24]، ولكن هذا المبدأ ظل سائداً لأساس للتعامل مع الغير ممن لم يدخل في طاعة الموحدين السياسية، رغم سقوط الدولة المرابطية.

يظهر من خلال رسائل الخلفاء الموحدين مع أعدائهم -أو من لم يدخل في طاعتهم- ويبالغ خليفة ابن تومرت عبد المؤمن بن علي في رسالته «فما عذر من سمع قيام المهدي في التخلف عنه، ولو كان ببلاد الصين والهند، حتى يلتحق إليه وينجو في سفينته من الغرق العام»[25]، كذلك يظهر في رسالة ولده إلى والي غرناطة لإعلامه بجوازه إلى الأندلس، ينعث فيها ابن مردنيش بالكفر قائلاً، «وإن أمرتكم الجزيرة لمن آكد ما توجه إليه نظرنا وتوكل به اعتناؤنا واشتغل به فكرنا، لمصادقة الأعداء من الروميين والمجسمين لبلاد الموحدين...»[26]، لقد استفاد الموحدون من هذه العقيدة التومرتية في مبدأ الدولة، إذ عضدوا بها ملكهم، برمي خصومهم بالفكر والتجسيم مما جعل الناس من الرعية بإزاء دولة الموحدين صنفين، إذا اضطر المغاربة إما للدخول في عقيدة الموحدين خوفا من بطشهم، كما أن الكثيرين «قد جذبتهم الفكرة فدخلوا عن إيمان وإخلاص»[27]، في دعوة الموحدين، وإما الدخول في المواجهات الطويلة كما فعل بنو غانية.

إنّ هذا الخلل في تحديد مفهوم التوحيد كان له أثر البالغ في سير الدولة الموحدية نحو الانهيار «وإن كان الموحدون لم يفطنوا إلى ذلك أبداً»[28]، قد تسبب هذا التحديد لمفهوم التوحيد، بتحديد الإيمان في

العقيدة الموحدية على أنه إيمان بابن تومرت وفكره لا بالتوحيد الذي جاء به الإسلام أي المتعارف عليه.

إنّ الإخلال لمفهوم التوحيد، وأفكار ابن تومرت التي ألصقت به، قادت «بالضرورة إلى حالة السلب المقابلة التي تملأ الفراغ والفجوات بأوهامها وظنونها... التي تبتز الإنسان المسلم، وتستلب روحه وقدراته الفعالة، وتهدر حريته وكرامته، وتفقده بالتالي القدرة على الفعل والإبداع والعطاء، كما أنها تفقده الأداء الحضاري وحدته وتماسكه وغيره، وتدفعه إلى المزيد من الترهل والتفكك والسّكون»[29]، ولذلك فإننا نجد هذا المفهوم للتوحيد وما سبب فيه من هدر دماء وأموال تسبب -باعتبار عامل قيام وسقوط في آن واحد- في الزيغ الكبير الذي وقعت فيه دولة الموحدية تجاه الدولة المرابطية على وجه الخصوص.

لئن كان هذا الاتجاه للفكر التومرتي قد لاقى رفضاً واسعاً حتى عند قبائل المصامدة، والذين لاقوا جرّاء رفضهم تقتيلاً كبيراً إثر عمليات التمييز التي تكررت مرات عديدة في تاريخ الدولة، فإن هذا الرفض قد استمر، ولكن بتدرج عند الخلفاء الموحدين ولقد كان أول المجسدين لهذا الرفض خليفة عبد المؤمن بن علي الكومي، ولكن الرفض بدأ بالتدرج، لقد عارض التنظيم الذي وضعه ابن تومرت، ولكن معارضته كانت على أرض الواقع، وبحذر شديد، ذلك أن ابن تومرت لما وضع نظام الطبقات «كان يهدف من وراء ذلك إلى أن يكون من ضمن مهامها مراقبة الحكومة التي تدير شؤون الموحدين وتنتقدها وتوجه إليها النصح، بل وتعمل على تغييرها إذا ما خرجت عن الطريق السوي»[30] الذي رسمه.

لقد كانت الطبقات تمثل النظام المحكم الذي يسير عليه مجتمع الموحدين، يقوم بعضها بعضاً، بما يضمن سير الدولة وفق مبادئ التومرتية.

ولكن عبد المؤمن لم يكن ليرضى، «أن لا يكون له من الأمر إلا الاسم»، لم يفعل ذلك مباشرة وإنما بادر إلى استغلال الظروف أحسن استغلال.

عندما هزم الموحدين في موقعة البحيرة مات من جماعة العشرة الطبقة الأولى من طبقات المهدي ثمانية منهم[31]، لقد كانت هذه فارقة مكنت لابن علي من الانقلاب عن مبادئ التومرتية التي رمى بها المهدي المرابطين، وهي اتهامه لهم بأنهم الملوك[32] «لقد غير ابن علي نظام الطبقات، وفق ما يكفل له إنجاز مخططاته»، إن وفاة ثمانية من طبقة الجماعة قد يعتبر دليلاً على أن الطبقات الأخرى للموحدين، قد توفيت أعداد منها أيضا، كان هذا تحضيرا من عبد المؤمن بن علي إلى الخطة التي بعدها، والتي سيظهر فيها جليا تطورات حتى على مستوى هرم الدولة الموحدية.

يذكر لنا ابن الأثير الكيفية التي ولي بها عبد المؤمن ولده محمد العهد من بعده، بعد أن كان قد غير نظام طبقات ابن تومرت بما يوافق هذه الخطوة، بل ويورد ابن الأثير السبب في ذلك إذ يقول: «ولما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثر أولاده، أحب أن ينقل الملك إليهم، ووضع عليهم من يقول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن، ويقولوا له: نريد أن تجعل لنا ولي عهد من ولدك، يرجع الناس إليه بعدك، ففعلوا ذلك، فلم تحهم إكراما لعمر لعلو منزلته في الموحدين، وقال لهم: إن الأمر لأبي حفص عمر، فلما علم عمر ذلك خاف على نفسه

فحضر إلى عبد المؤمن، وأجاب إلى خلع نفسه، فحينئذٍ بويع لمحمد بولاية العهد»[33]، لقد كان مقرراً أن يتولى أبو حفص عمر -وهو من تبقى من جماعة العشرة من طبقات المهدي- إذ لم يكن الأمر وراثة أول الأمر، فقد مات ابن تومرت ولم يخلف خليفة ممتثلاً برسول الله ﷺ.

ولكن عبد المؤمن أظهر في رسالة بعثها إلى طلبة الموحدين في سبتة وطنجة، أنه لم تكن له أدنى شائبة في التفكير في توليه أحد أبنائه ولكنها الظروف التي ألجأتهم بإلحاح القبائل عليه في ذلك.

وفي نفس هذه السنة، قسم عبد المؤمن أقاليم الدولة، فاستعمل عبد الله على بجاية، وعلي على فاس، وولّي سعيد على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة، وكذلك غيرهم،[34] لقد خطا عبد المؤمن خطوة في الاتجاه المعاكس تقريبا لمنهج ابن تومرت الكاره للملك وولاية العهد، لم يقتصر رفض عبد المؤمن الضّمني، من خلال ولاية العهد لابنه، لمنهج ابن تومرت في ولاية العهد لابنه فقط بل بتوليه أبنائه[35] ولايات الدولة التي صارت بعد ذلك دولة موحدية يحكمها عبد المؤمن وبنوه، ليصبحوا ملوكا بعد المرابطين، إلا أن الملوكية المرابطية التي كانت علامة استحل بها ابن تومرت دماءهم، وأزال دولتهم تحولت في عهد عبد المؤمن إلى حق طالبت به الرعية بقدرة قادر.

استمرت ولاية العهد أمراً سارياً بين خلفاء الموحدين منذ عهد عبد المؤمن، كخرق صارخ لعقيدة ابن تومرت ومنهجه في الحكم، كانت نتيجة ذلك المباشرة ثورة أخرى المهدي عبد العزيز وعيسى الذين اعتبر نفسيهما أولى من ولاية العهد بأبناء عبد المؤمن، ولكن

هذا التمرد استدرجهما إلى القتل على يد عبد المؤمن بن علي.

ولي يوسف بن عبد المؤمن الخلافة بعد أبيه، ولي يوسف هذا لولده أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي[36]، الذي ظهر منه موقف يبين حجم التدهور الذي وصلت إليه مكانة عقيدة المهدي، في قلوب زعماء الموحدين وخلفائهم، يروي المراكشي قائلاً: « أخبرني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري، ونحن بحجر الكعبة قال: قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف: يا أبا العباس إشهد لي بين يدي الله عزوجل أني أقول بالعاصمة -يعني عصمة ابن تومرت- قال: وقال لي يوماً وقد استأذنته في شيء يفتقر إلى وجود الإمام، يا أبا العباس أين الإمام...أين الإمام».

لقد انتقل الأمر إذن من مخالفة المنهج التومرتي في أمور الحكم والدولة إلى القول بالبراءة من العصمة عند المنصور الموحدي، الذي أظهر في غير موضع ذلك التبرم من عقيدة المهدي حيث يعلق المراكشي على ذلك قائلاً «لو أوردناها لطال بنا التلخيص»[37]، لقد تفطن خلفاء الموحدين للتومرتية عقيدة ومنهجاً منذ عبد المؤمن بن علي، «فحوصرت مفاهيم المهدية في المستوى الرمزي والشعاراتي التي نقل عن يوسف والمنصور ما يفيد تبرهما من المهدية، لكن لم يستطيعا إلغاءها لما كانا يشعران بأنها توفر لهما امتيازات خاصة وأولها تميزهم عن باقي الناس»[38]، إذن لقد كانت المهدوية، سمة تفصيلية لبني عبد المؤمن كورثة لنهج ابن تومرت، ولقد كان الإبقاء على عقيدته في مراسلاتهم ومكاتباتهم

مبقيا على شرعيتهم في الحكم دون سائر ولذلك فإنهم أبقوها شعاراً للدولة، ولكن على مضض، وعلى علم بأنها خطأ اقتنع به الناس.

3 - إلغاء المأمون للمهدوية:

ولكن الإصرار على الخطأ بقي حيناً من الدّهر منهج خلفاء الموحدين، مع كتمان التبرم من عقيدة المهدي.

لما بويع المأمون بالخلافة، وهو ما يزال بإشبيلية خاف القاتلون لأخيه العادل من سطوته «لما يعلمون من شهامته وصرامته، وتخلقه بأخلاق الحجاج بن يوسف، وتخوفوا أن يأخذهم بدم عمه عبد الواحد المخلوع، ثم أخيه عبد الله العادل...»[39]، ولكن أهل الأندلس قد بايعوا المأمون، هذا الذي كتب إلى الحضرة ببيعته، ولكنهم آثروا ابن أخيه يحي بن الناصر لصغر سنه، لما علم بذلك المأمون جاز إلى المغرب يريد دخول مراكش، فلما دخلها، خرج له ابن أخيه يحي بن الناصر الذي اختاره قاتلوا العادل«ليكون أطوع لهم»[40]، ذلك لأنه كان صغير السّن.

تأخر المأمون لطلب العون من النصارى على الموحدين، ولكن المأمون كان يكتم شيئاً سيكون فارقه خطيرة في تاريخ الدولة الموحدية.

لما دخل المأمون نهض إلى مراكش بعدما أراح لسبتة، حتى لما قرب من مراكش لقيه «يحي بجيوش الموحدين وذلك عشي يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الأول من السنة الداخلية، فانهزم يحي وفر إلى الجبل»[41]، وانتصر المأمون داخلاً إلى مراكش العاصمة، وخطب خطبته المشهورة الجريئة التي أعلن فيها نقض بيعة المهدي، حيث صعد المنبر وقال: «لا تدعوه بالمهدي المعصوم

وادعوه بالغوي المذموم، ألا لا مهدي إلا عيسى»[42]، ويذكر ابن عذاري أن المأمون كتب إلى سائر البلاد «بزوال اسم المهدي من السكة والخطبة، وذلك أنه لما قتل الموحدين أمر بقطع ذكر إمامهم المهدي من الخطبة في جميع بلاده، ومحا اسمه من المخاطبات ومن النقش في السكة وقطع النداء بعد الصلاة والنداء عليها... وأصبح ولله الحمد وما أشبه ذلك مما كان عليه العمل من أول دولة الموحدين إلى هذه السنة المؤرخة»[43]، لقد صدع المأمون، بما ظل طي الكتمان في نفوس خلفاء الموحدين، حتى أن المأمون أخبر في خطبته أن المنصور أباه أوشك على القيام بهذه الخطوة قائلاً:« وقد كان سيدنا المنصور قد همّ أن يصدع بما به الآن صدعنا وأن يرفع للأمة الخوف الذي رفعنا...»[44].

هذا الكلام يقدم لنا دليلاً آخر على أن الإيمان بفكرة العصمة والمهدوية عقيدة ومنهاجاً كانت في منحنى تنازلي، من الإيمان بها إلى التخلي عنها.

إن خطوة المأمون الجريئة في إلغاء المهدوية والعصمة، تعتبر آخر أدوار الحضارة الموحدية وفق ترتيب ابن نبي لها: إذ مرت هذه الحضارة بمرحلة الروح فيما يخص ابن تومرت وبعده عبد المؤمن بن علي حتى عهد الخليفة المنصور الموحدي، قد تعتبر فترة ما بعد فتح المغربين إلى هزيمة العقاب أو خلافة النّاصر مرحلة العقل التي سادت من عهد عبد المؤمن، وأبي يعقوب يوسف المنصور، حيث انتعشت الآداب والعلوم مرة أخرى، وبسط الأميران حمايتهما على الفلاسفة.

أما عصر الخليفة الناصر، فقد بدا فيه خليفة الموحدين، غير معنيٍّ لا بالفلسفة ولا بالدين، بل أهمل شؤون الحكم وانغمس في الملذات[45]، وعلى هذا الشأن سار الخلفاء بعده حتى صار يبايع الخليفتين للموحدين في آن واحد، ذلك أن الملك والحصول عليه أصبح الشغل الشاغل لأبناء عبد المؤمن.

بل بلغ الأمر في عهد المأمون مثلا أن استجلب معه جيش النصارى للدخول إلى مراكش، وقد قبل الخليفة الموحدي بشروط مخزية كان فيها ثُلُمٌ كثيرة للنصارى على بلاد الأندلس تقول المصادر بأن المأمون، «قد شرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون ما يلي بلاده يختارها هو، وأن يبني بمراكش إذا دخلها الجيش النصاري الذين معه كنيسة بظهور بها دينهم، ويضربون فيها نواقيسهم لصلواتهم وأن من أسلم منهم لا يقبل منه إسلامه، ويرد إلى إخوانه فيحكمون فيه بأحكامهم إلى غير ذلك، فأسعفه المأمون في جميع ما طلب منه»[46]، إنه الحرص على الملذات والملك قبل أي شيء آخر، لا يمكن أن يكون ذلك إلا مرحلة الغريزة[47] التي تسبق سقوط الدولة وتراجعها الحضاري وفق ترتيب ابن نبي.

لقد أصبح التأثير السني واضحاً عند المغاربة، ولا شك أن الانتصار الهادي لفقهاء المالكية، وصمود المذهب أمام التومرتية، عهد للمأمون أن يقوم بخطوته الجريئة هذه، إنّ الإجراءات المتخذة من طرف المأمون كانت نابعة من شعور المأمون لمحدودية أثر التومرتية في التجربة الموحدية، وعجز التومرتية، عن كسب تعاطف المجتمع والتفافه، فانتهز أحداثا داخلية محضة، ليجهز التصور

بأنها أصبحت –التومرتية- تعيق سير التجربة السياسية وتحد من اندماج الدولة في المجتمع.

هناك معطيات أخرى تفسر هذا الإجراء، وهي عناصر مرتبطة أساساً بشخصية المأمون، هذا الخليفة كان شخصية علمية مرموقة، قريباً من أهل العلم، وقد نشأ نشأة أندلسية بعيدة عن التأثير المباشر للوسط المصمودي.

كذلك التحفظ الذي كان لوالده المنصور من التومرتية فكرة وعقيدة، ثم إنّ المجتمع كان يسري فيه موقف عام من تراث ابن تومرت، عبر عنه بعض العلماء في مواقف مختلفة جعل خطوة المأمون أشبه بنطق على ألسنة الصامتين في المجتمع الذي أصبح يرتبط مذهبياً بانتماء سنّي أصبح راسخاً... مما يعطي الانطباع بأن الإسلام الذي تبناه المجتمع كان أبسط من الصيغة التي حاول الفكر التومرتي فرضها[48] على المغاربة.

قد يكون اضطر المأمون إلى فعل ما فعل، وهو يمثل هرم السلطة الموحدية، في صورة تنازلات لم يكن بدٌّ من تقديمها لكسب ودّ الفقهاء دليلاً على أخطر ضعف عانوه، وهو فقدان التأثير الشعبي، ذلك أن المرابطين اقتلعوا الارستقراطية العربية من السلطة، ولاقوا تأبيدا من الفقراء وعامة الشعب، وقد يكون الموحدون حصلوا على تأييد فعال من جانب الأرستقراطية المخلوعة، لكن نصيبهم من التأييد تضاءل عند العامة منذ أن زال شعور الارتياح العابر، بالخلاص من مساوئ المرابطين.

إنّ صورة المهدي ابن تومرت التي اجتذبت البربر كانت الأرجح ضئيلة

الجاذبية بالنسبة إلى سكان الأندلس تماماً مثلما كان من الممكن أن يكون بالنسبة للعرب في أقطار إفريقيا الشمالية الواقعة شرقي الإمبراطورية الموحدية.

وإذا صح هذا كله فمن الممكن القول إن الدولة الموحدية، كانت قبل كل شيء تتركز أساساً على القوة العسكرية، هذه الأخيرة لا تتطلب من الدولة سوى القدر الأقل من الموافقة من جانب الناس المحكومين، لم يكن لدى الشعب حماسة ولا إحساس بأنه مرتبط بالنخبة الحاكمة من أجل قضية خطيرة، في هذه الأوضاع العصيبة تخلى على الأقل عضو واحد من الأسرة الحاكمة ممثلة في شخص المأمون عن ولائه لتعاليم ابن تومرت، وهكذا كان تصور عامة الناس، إن هذا الأمر كان فيما يبدوا أكثر من أي شيء سواه سبباً في انحطاط حكم الموحدين[49].

الهوامش:

1 - عز الدين ميدون، ندرومة مدينة عبد المؤمن، ج02، ط01، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، سنة 2011، ص:04.

2 - حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب و الأندلس، مكتبة الأسرة، القاهرة، سنة 2004، ص:206.

3 - مونتغمري وات، في تاريخ إسبانيا الاسلامية، المطبوعات للنشرو التوزيع، بيروت، ط2 1998، ص:120.

4 - المغراوي محمد، الموحدون وأزمات المجتمع، جذور للنشر، الرباط، سنة 2006، ص:146.

5 - المغراوي، الموحدون و أزمات المجتمع، ص:20.

6 - ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط2007، ص:169 - 170.

7 - ابن خلدون، المقدمة، ص: 169 - 170.

8 - مالك بن بني، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة، أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، ط2009،9، ص:41.

9 - نفسه، نفس الصفحة.

10 - ابن تومرت، المهدي، أعز ما يطلب، تحقيق و تقديم عمار طالبي، الجزائر 2009، ص: 249 - 254.

11 - مالك بن بني، شروط النهضة: ترجمة عبد الصبور شاهين، كامل مسقاوي، دار الفكر دمشق، ط9 سنة 2009، ص:84.

12 - ابن تومرت، المصدر السابق، ص:254.

13 - البيذق، أبي بكر علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق عبد الوهاب بن المنصور، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، سنة 1971، ص: 21 - 22 - 23.

14 - عبد المجيد الصغير، خصوصية التجربة الصوفية في المغرب، مفاهيم و تجليات، رؤية للنشر، الطبعة الأولى، 2011، ص:85.

15 - البيذق ، المصدر السابق، ص:16.

16 - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص305، مركز الثقافي العربي، ط02، سنة 2009. الدار البيضاء، المغرب، ص:306.

17 - ابن خلدون، المقدمة، ص: 132.

18 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ج01، دار الوعي، الجزائر،ترجمة عبد الصبور الشاهين، سنة 2012، ص:56.

19 - اغناتس غولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية، ترجمة محمد يوسف موسى، منشورات الجمل بغداد - بيروت 2009، ص:90.

20 - غولد تسيهر، المرجع السابق، ص:307.

21 - العروي، المرجع السابق، ص:306.

22 - نفسه، ص:307.

23 -عز الدين عمر أحمد موسى، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، ط1، 1983، ص:77.

24 - الغناي، مراجع عقيلة، سقوط دولة الموحدين، منشورات جامعة قاريونس، دار الكتب الوطنية، بنغازي، سنة 2008، ص:46.

25 - أحمد عزاوي، رسائل موحدية، مجموعة جديدة، ج1، منشورات كلية الآداب، جامعة القنيطرة، ط1، 1995، ص:54.

26 - نفسه، ص:117.

27 - الغناي، المرجع السابق، ص:48.

28 - نفسه، نفس الصفحة.

29 - عماد الدين خليل، مدخل الى الحضارة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، لبنان، بيروت، ط1، 2005، ص:156.

30 - الغناي، المرجع السابق، ص:51.

31 -البيذق، المصدر السابق، ص: 48.

32 -ابن تومرت، المصدر السابق، ص:242.

33 - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، دار الكتاب العربي، ط4، 1983ن بيروت ، ص:408.

34 -الغناي، المرجع السابق، ص:62.

35 - ابن الأثير، المصدر السابق، ص:408.

36 - نفسه، ص:240.

37 - المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم عزب، دار الفرجاني للنشر، القاهرة، سنة1994، ص:240.

38 - المغراوي، المرجع السابق، ص:144.

39 - الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، تحقيق جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة 1954، ص:208.

40 - الناصري، المصدر السابق، ص:208.

41 - نفسه، نفس الصفحة.

42 - نفسه، ص:212.

43 - المراكشي، المصدر السابق، ص:286.

44 - ابن عذاري، المصدر السابق،، ص:287.

45 - ول وايرل ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان ترجمة محمد بدران، دار الجيل بيروت، بدون سنة ص: 227 - 228.

46 - الناصري، المصدر السابق، ص: 211 - 212.

47 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ج01، دار الوعي، الجزائر،ترجمة عبد الصبور الشاهين، سنة 2012، ص:41.

48 - المغراوي، المرجع السابق، ص:- 145 - 146 - 147.

49 - مونتغمري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، المطبوعات للنشر والتوزيع، ط2، ، بيروت،1998، ص: 120 - 121.

مناهج التأليف الفقهي في المذهب المالكي
كتاب «المقدمات الممهدات»
للإمام ابن رشد الجدّ -أنموذجا-.

الأستاذ: فتحي لعطاوي
أستاذ بالمدرسة الوطنية دار الإمام

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونؤمن به ونتوكّل عليه، ونثني عليه الخير كلّه. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.تسليما كثيرا؛ أما بعد:

فمن المعلوم أنّ المذهب المالكي قد عرف انتشارا واسعا، ونال صيتا ذائعا في كثير من ديار الإسلام، حيث انبعث من الحجاز، وامتدّ إلى العراق و بلاد الشام، ووصل إلى آسيا الوسطى، وتوسّع نفوذه في مصر، وعرف طريقه نحو بلاد إفريقية والأندلس، أين لم يلبث أن اشتد بنيانه، وتوطّدت أركانه، وأصفق عموم النّاس عليه، وركن حكّامهم إليه، فغدا هو المذهب السائد والمعتمد.

وقد تكوّنت في ربوع بلاد الغرب الإسلامي- بجناحيه الإفريقي والأندلسي- مدرسة فقهية عريقة ومتميّزة، أبدع الكثير من أعلامها في التأليف، وتوسّع العديد من أعيانها في التصنيف، فحفظوا لنا الروايات، واستوعبوا الاختلافات داخل المذهب وخارجه، وأمعنوا في التحقيق، وتقصّوا في التدقيق، ونوّعوا في الأساليب، وجددوا في طرائق العرض، وجمعوا بين المعقول والمنقول، وربطوا الأحكام بالمقاصد، وتبنّوا أصول المذهب المالكي السنّي، وأخذوا بعين الاعتبار واقع المجتمع المحلّي، واستجابوا لمقتضيات الظروف في سائر مناحي الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية .. وغيرها. وحسب الناظر أن يسرح طرفه في كتبهم، ويتأمل ما وَشَتْه أقلامهم، فإنّه سيجد حينها تصديق هذا الكلام.

ولئن كانت مجالات الاختيار في هذا الإطار كثيرة ومتنوّعة، فإنّ ما يسمح به المقام هو الاقتصار على أنموذج واحد من بينها؛ وقد وقع اختياري في هذا المقال على كتاب نفيس، كان لي نعم الرفيق والجليس، طوال مرحلة البحث لإعداد مذكّرة الماجستير، حيث توجّه تفكيري آن ذاك إلى جمع ودارسة ما ورد فيه من إجماعات؛ وهذا الكتاب هو: «المقدمات الممهدات» للقاضي الفقيه: ابن رشد الجدّ (ت520 هـ)- رحمه الله تعالى-.

وسأحاول أن أرحل بالقارئ عبر الزمان، وأسمو به في مدارج الكمال، لنواكب أهمّ محطّات حياة هذا الإمام، ونطلّ على أبرز مكنُونات سِيرتِه الذاتية والعلمية. ثمّ نحط بعدها الرحال عند كتاب «المقدّمات»، لنستطلع أهمّ بياناته، ونتعرّف على جليل قيمته، ونستعرض طريقة مؤلّفه، وأبرز معالم منهجيته.

ولتحقيق هذا المبتغى، فستتمحور معالجة الموضوع في ثلاثة مباحث، كالآتي:

المبحث الأول: السيرة الذاتية والعلمية للكاتب.

المبحث الثاني: بيانات الكتاب، وقيمته العلمية.

المبحث الثالث: معالم المنهجية التي يتأسّس عليها بنيان الكتاب.

وعلى الله تعالى قصد السبيل ...

المبحث الأول: السيرة الذاتية والعلمية للكاتب:

أولا: اسمه ونسبه وكنيته ولقبه:

هو محمد بن أحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن رشد[1]. ويكنى: أبا الوليد[2].

وقد درج طوائف من أهل العلم على إطلاق لقب: ابن رشد «الجدّ» أو«الأكبر»أو«الفقيه»[3]على إمامنا-المترجم له-؛ تمييزاً له عن ابن رشد «الحفيد» أو «الأصغر» أو «الفيلسوف» -وهو صاحب المصنّف الفقهي المشهور: «بداية المجتهد»[4]-؛ وهذا على اعتبار أنّه حفيده، وكان يحمل نفس الاسم والكنية.

ثانيا: تاريخ ومكان ولادته:

لقد أسعفنا الإمام ابن رشد الجدّ -رحمه الله- بتاريخ مولده، وكفانا مُؤنَة البحث بخصوصه، حيث إنّه قد صرّح قائلا: (ولدت سنة (450هـ)[5]. وهو ما يوافق سنة (1058م).

وهذا دون شكّ هو التاريخ الصحيح والمعتبر، الذي تناقله أكثر المترجمين له قديماً وحديثاً[6]. وذلك على خلاف ما ورد في «الديباج المذهب» للإمام ابن فرحون من أنّ ولادته كانت سنة (405هـ)[7].

وقد أضاف المؤرّخ الإمام ابن بشكوال-رحمه الله- أنّ ذلك كان في شهر شوال(8).

ولم يختلف المترجمون أنّ مكان ولادته مدينة «قرطبة»، التي كانت تُعدّ من بين أشهر حواضر العلم، ومحاضن العلماء في تلك الأيّام.

ثالثا: نشأته وتحصيله للعلم:

لم تُطلِعْنا كتب التراجم على

معلومات بخصوص نشأة ابن رشد الجدّ وشرخ شبابه، ولم تُسعِفْنا بتفصيلات بشأن مرحلة الطلب والتحصيل من حياته؛ وكلّ ما نعلمه أنّه نشأ في بيت علم ودين، وفي كَنَف إمام جليل هو والده الإمام أحمد بن أحمد بن رشد-رحمه الله-[9]؛ ولقد كان له-دون شكّ- فضلٌ كبير في تعليمه، ويدٌ طولى في تكوينه.

ويمكننا أن نخمّن أنّه قد استفتح مساره العلميّ بحفظ القرآن، كغيره من الصبيان في تلك الأزمان؛ لأنّه نَهْجٌ أخذ به المسلمون في جميع الأمصار، ودرجوا عليه في مختلف الأقطار-كما يذكر العلاّمة ابن خلدون -رحمة الله عليه-[10]. كما أنّه قد أخذ إلى جانب ذلك-على الأرجح- بحظ من مبادئ العربية، وبعض المرويات الشعرية، وتعلّم الخط والكتابة، وفقا للطريقة التي مشى عليها أهل الأندلس في المراحل الأولى للتعليم[11].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الإمام ابن رشد-رحمه الله- لا تعرف له رحلة علمية خارج حدود الأندلس. ولعلّه وجد في بلدته «قرطبة» ما يكفيه ويغنيه، من الزاد العلمي، والمخزون المعرفي؛ على اعتبار أنّ جنباتها كانت مستنيرة بمجالس كثيرة لكبار العلماء، ومحافل غفيرة لجلّة الفقهاء.

ومن أبرز هؤلاء الشيوخ الذين أخذ عنهم، واستفاد منهم[12]: الإمام الفقيه أبي جعفر أحمد بن محمد بن رزق-رحمه الله-[13]، والإمام المحدّث أبي العباس أحمد بن عمر العذري، المعروف بابن الدلائي-رحمه الله-[14]، والإمام المتبحّر، اللّغوي الأديب أبي مروان عبد الملك بن سراج-رحمه الله-[15]، والإمام الفقيه المفتي أبي عبد الله محمد بن فرج، المعروف بابن الطلاّع[16]...وغيرهم.

رابعا: عطاؤه العلمي، والوظائف التي تقلّدها:

بعد أن تأهّل الإمام ابن رشد-رحمه الله- لنشر العلم، نزل إلى ساحة العطاء والبذل، فأظهر في جانب التدريس نشاطا، وقطع في مجال التأليف أشواطا، ولم يلبث أن قُدِّم للفتوى.

وفي سنة (511هـ) أُسنِد إليه قضاء قرطبة[17]، كما تولّى -أيضاً- إمامة المسجد الجامع بها. ومضت عليه أربعة أعوام على هذه الحال- انشغل بأمور المسلمين فيها عن التفرّغ للتأليف إلاّ قليلا-؛ فكان هذا من جملة الأعذار التي طلب بسببها الإعفاء عن القضاء- كما حكى عن نفسه-[18]؛ فتمّ إعفاؤه سنة (515هـ). ومن حينها انقطع للتأليف والتعليم، وخَصَّص مجالس لإسماع كتبه[19].

ومن أبرز الأعلام الذين تتلمذوا على يديه في هذه الفترة، ووصلوا بعد ذلك إلى مراكز الإمامة، وكراسي الإفتاء، ومناصب القضاء: الإمام أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن، المعروف بابن الوزّان[20]، و القاضي أبو مروان عبد الملك بن مسرّة-رحمه الله-[21]، والقاضي عِيَاض بن موسى -رحمه الله-[22] ...وغيرهم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ اعتزال الإمام ابن رشد بغرض التأليف والتعليم، لم يكن يعني لديه الانعزال التامّ عن واقعه، والتنصّل من مسؤوليّاته تجاه بلده ومجتمعه؛ بل إنّه ظلّ -رحمه الله- ملاذا للحكام والمحكومين، يُرجَع إليه في المشكلات، ويُعوَّل عليه عند المُلمّات[23]. وكانت له في هذا السبيل مواقف مشهودة في خضم بعض الظروف العصيبة التي عرفتها بلاد الأندلس[24].

خامسا: مؤلّفات الإمام ابن رشد الجد:

لقد مثّل التأليف جانبا مهمّا من النشاط والعطاء العلمي للإمام ابن رشد الجد-كما عرفنا آنفا-. وكان انصرافه موجها بالدرجة الأولى إلى الفقه، فمعظم تآليفه فقهية؛ وأذكر من بينها:

1 - «المقدّمات الممهّدات»[25]:

وهو كتاب جامع لمجمل أبواب الفقه، قصد به صاحبه -بالدرجة الأولى- إلى شرح مذهب الإمام مالك -رحمه الله تعالى-، ويمكن أن يُدرَج في نطاق التعليقات والتقييدات على المدوّنة، ويُعتَبر سلّما إليها، وعونا عليها. ولنا عودة إلى الحديث عنه بشيء من التفصيل-إن شاء الله-[26].

2 - «البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة»[27]:

وهو شرح مبسوط لمسائل» المستخرجة»[28] للإمام محمّد العتبي-رحمه الله-، يشتمل على التدقيق في الروايات والسماعات التي اشتملت عليها، ومقارنتها بغيرها، وتمييز صحيحها من سقيمها[29].

3 - «فتاوى ابن رشد»[30]:

لم يجمع الإمام ابن رشد كتاب الفتاوى بنفسه، وإنّما اعتنى تلميذه ابن الوزّان بجمعها، وقراءتها عليه، وروايتها عنه. وقد عكف الأستاذ المختار التليلي -رحمه الله- على تحقيق نسخها، وضمّ إليها فتاوى أخرى متفرّقة وألحقها بها، وأخرجها تحت عنوان: «فتاوى ابن رشد»[31].

4 - 5 - كتاب «حجب المواريث» و«مختصر الحجب على مذهب مالك بن أنس-رحمه الله- ممّا روي عن زيد بن ثابت -رضي الله عنه-»: وقد أورد الإمام ابن خير-رحمه الله- اسمي هذين الكتابين في «فهرسته»، وصرح أنّه قد حدّثه بهما غير واحد من أصحابه[32]. وهما مفقودان ليوم الناس هذا –في حدود علمي-.

وليست هذه قائمة نهائية لمؤلّفات الإمام ابن رشد، بل إنّ له كتبا أخرى غيرها، أضربت عن ذكرها خشية الإطالة.

سادسا: مرضه ووفاته:

أصيب الإمام ابن رشد الجدّ -في آخر حياته- بمرض عضال، ألزمه الفراش، واستمرّ به قرابة أربعة أشهر. وفاضت روحه إلى خالقها في ليلة الأحد الحادي عشر من ذي القعدة سنة (520هـ) الموافق لـ: (1126م)[33].

وقد صلّي عليه بجامع قرطبة، ودفن بمقبرة العباس، وكان يوم جنازته يوما مشهودا، والحزن لفراقه شديدا، وانطلق الشعراء في رثائه، وتوالى الأدباء في تأبينه، والإشادة بخصاله[34].

سابعا: المكانة العلمية للإمام ابن رشد الجد:

إنّ الباحث في شخصية الإمام ابن رشد الجدّ-رحمه الله-، والمطالع فيما تركه من مصنّفات، يجد نفسه أمام عالم موسوعيّ، راسخ القدم، طويل الباع، واسع الاطلاع، يجمع في جعبته الكثير من العلوم، ويستبطن في كنانته العديد من الفنون؛ مستحضر للنصوص، حافظ للآثار، متمرّس في علم الأصول، قوي في علوم اللّغة العربية، ملمٍّ بالسيرة النبوية .. دون أن أنسى إلى جانب هذا كلّه، تبحّره في الفقه -الذي يُعدّ ميدان تخصّصِه-،

واستيعابُه للمسائل والأقوال داخل المذهب وخارجَه، ومعرفته بمواطن الإجماع، وأماكن الخلاف ومآخذه.

وقد مزج-رحمه الله تعالى- هذا العلم الواسع، بالفهم العميق للواقع، والمتغيّرات الزمانية والمكانية؛ فكان يجيب على الرسائل التي ترد إليه، والنوازل التي تُعرض عليه-بناءً على ذلك-. ومن راجع كتاب الفتاوى لاح له قدر هذا الإمام ومنزلته-في وقته-، ومدى وثوق الناس بعلمه من مختلف فئات المجتمع.

وهذا كلّه يعضدّ حقيقة ما حلاّه به معاصروه والعلماء من بعده من نُعُوتٍ وصفات، ويؤكّد مصداقية ما سجّلوه تجاهه من عبارات التقدير والاحترام، وما نوّهوا به من المكانةٍ والمنزلةٍ التي يحتلّها هذا الإمام.

فعلى سبيل المثال: يقول عنه تلميذه أبو القاسم بن بشكوال-رحمه الله-: (..وكان فقيهاً، عالماً حافظ للفقه، مقدماً فيه على جميع أهل عصره، عارفاً بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه، بصيراً بأقوالهم واتّفاقهم واختلافهم، نافذاً في علم الفرائض والأصول، من أهل الرياسة في العلم والبراعة والفهم..)[35].

ويتحدّث عن مكانته القاضي عياض-رحمه الله- قائلا: (.. زعيم فقهاء وقته بأقطار الأندلس والمغرب ومقدّمهم، المعترف له بصحة النظر، وجودة التأليف، ودقة الفقه، وكان إليه المفزع في المشكلات، بصيراً بالأصول والفروع والفرائض والتفنّن في العلوم ..)[36].

ويشيد بذكره الإمام أبو جعفر الضبّي: (... وكان أوحد زمانه في طريقة الفقه ..)[37].

وإذا كانت هذه مواقف بعض المتقدمين فإنّنا نصادف أقوالا مشابهة لها لدى العلماء والباحثين المعاصرين:

فها هو الإمام ابن عاشور ينوّه باسمه، مع ثلة آخرين من العلماء الأندلسيين؛ في معرض ثنائه على طرائقهم في التأليف، قائلا في أعطاف كلامه: (.. والأندلس في ظنّي أحسن بلاد الإسلام تأليفا ..)[38].

ويُجمل الثناء عليه الدكتور المختار التليلي-رحمه الله-، فيقول: (.. ومن الواضح أنّ ابن رشد يمثّل بحقّ إحدى حلقات السلسلة في شيوخ الأندلس، والمقدّمين في فقه مالك، الذين انتهت إليهم الرحلة، وآلت إليهم الفتوى، وكانوا بارزين في الشورى ..)[39].

وأمّا الدكتور محمد حجي فقد ملأ فمه بحمده قائلا: (.. كان أستاذاً بطبعه، يحبّ التدريس، ويحسن طرق التبليغ، تُسعِفه مادة غزيرة، وتفكيرٌ منظّم، وعبارة منطلقة، ...)[40].

ولا غرو بعد كلّ هذه الإشادات بفضله، والشهادات بعلمه، أن يُصفِق فقهاء المالكية على اعتماد كتبه، ويطبقوا على تقديمه على غيره، ولا عجب حينئذ أن يكون أحد الأربعة الذين عوّل عليهم الشيخ خليل-رحمه الله-في مختصره.

المبحث الثاني: بيانات الكتاب، وقيمته العلمية.

أولا: التحقيق في نسبة الكتاب إلى مؤلّفه:

ليس هناك مجال للشكّ في نسبة هذا الكتاب إلى الإمام ابن رشد-رحمه الله-؛ ما دام أنّه قد أعلن عنه بنفسه، وسمّاه باسمه، في مقدمة كتابه الآخر: «البيان والتحصيل» حين قال: (... فاجتمع لي من ذلك تأليف مفيد

ينتهي أزيد من خمسة وعشرين جزءاً، سميته بكتاب «المقدّمات الممهّدات لما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيّات، والتحصيلات المحكمات لأمّهات مسائلها المشكلات» ...)[41].

كما أنّ عددا من تلاميذه قد ذكروا هذا الكتاب ضمن مؤلّفاته، التي سمعوها منه أو أجازهم بها[42].

وفوق هذا فإنّ حفيد الإمام ابن رشد، قد أحال عليه في بعض المواضع من كتابه المشهور «بداية المجتهد»، ونسبه إلى جدّه. ومن ذلك قوله - معلّقا على حديث سؤر الكلب-: (.. وقد ذهب جدي - رحمة الله عليه - في كتاب «المقدمات» إلى أن هذا الحديث معلل معقول المعنى ..)[43].

ثانيا: التدقيق في اسمه:

وقع شيء من الاختلاف بين المترجمين للإمام ابن رشد، بشأن تحديد الاسم الصحيح والكامل للكتاب؛ وظنّي أنّنا لن نضبط عنوانه بأحسن ممّا أراده صاحبه، في نصّ كلامه الذي نقلته- آنفا- من كتابه «البيان والتحصيل»؛ وعبارته كالآتي: «المقدمات الممهدات لما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات، والتحصيلات المحكمات لأمّهات مسائلها المشكلات».

ولكن قد يقع الاختصار في معرض الإحالة أو الإخبار؛ فيوسم بـ: «المقدّمات» أو «المقدّمات الممهدات» أو «المقدّمات لأوائل كتب المدوَّنَة»، كما مشيت عليه في هذ المقال، وجرى عليه كثير من العلماء والباحثين؛ ولا حرج في ذلك.

ثالثا: الموضوع الأساسي للكتاب، ومضامينه الثانوية:

كتاب «المقدمات» يُدرج ضمن كتب الفروع الفقهية على مذهب السادة

المالكية؛ وهذا على اعتبار أنّ الجانب المتعلّق بالأحكام الفقهية يمثّل أكثر مادّته، ويشغل المساحة الأكبر منه. وهو يشتمل مجمل الأبواب المعروفة في مجالي العبادات والمعاملات. وقد اعتنى مؤلّفه-في الدرجة الأولى- بشرح مذهب الإمام مالك-رحمه الله تعالى-، وقصد به-في الأساس- أن يكون مقدّمة بين يدي «المدوّنة»-كما صرّح في مطلعه-[44].

ومن هذا المنطلق يمكن أن يُصنّف الكتاب في نطاق التعليقات والتقييدات على «المدوّنة»، ويُعتَبر سلّما إليها وعونا عليها، فإنّ الإمام ابن رشد الجد-رحمه الله- قد وافق في معظمه تراتيب أبوابها، واعتنى في الغالب بالتقديم والتمهيد لكتبها، بما يحسن المدخل به لكلّ واحد منها، وضمّنه فصولا متنوّعة موجّهة لإيضاح معانيها، وبيان اشتقاقاتها اللغوية، ووصلها بالمعاني الشرعية، وربطها بأصول المذهب التي تبنى عليها، وردّها إليها.

وفي مطلع الكتاب تصادفك مقدّمات مهّمة في قضايا المعتقد وأصول الدين، وأخرى في أصول الفقه، إضافة لبعض الفصول الموجزة التي تكلّم فيها المصنّف عن فضل طلب العلم وتعليمه، وما يستعان به على تحصيله، ونبّه على ضرورة تصحيح النية في ذلك، ووجوب العمل بالعلم.

كما حوى كتاب «الجامع» -الذي يعدّ خاتمة هذا التأليف-، ما تهمّ معرفته من عيون السيرة، وفصولا متنوعة في الآداب الشرعية، والأخلاق المرعية والفضائل.

رابعا: قيمته العلمية

أقدّر أنّ أيّ باحث متخصّص، يطالع كتاب «المقدّمات الممهّدات»، سيسهل عليه الخروج بانطباع عام

حول قيمته العلمية، ومكانته المتميّزة في السلمّ التراتبي للكتب الفقهية عموما، والمالكية منها خصوصا.

ورغم أنّ مصنّفه قد قصد به-في الأساس- أن يكون مقدّمة بين يدي «المدونة»-كما مضى-، إلاّ أنّ بالإمكان ترشيحه لأن يكون مقدمّة لاقتحام غيرها من أمّهات المذهب المالكي ودووواينه، بل لا أخالني مبالغاً إن قلت: إنّه يصلح أن يكون سلّما للرسوخ في الفقه الإسلامي عموماً، وتنمية ملكة الاجتهاد لدى الطلاّب.

ومع أنّ «المدونة» قد تعاهدها كثير من العلماء بالترتيب والتهذيب، وتناولها العديد من الفقهاء بالشرح والإيضاح، فإنّ هذا التأليف الذي يجري الحديث عنه، قد استطاع أن ينال الشهرة بينها، ويحقّق نوعا من الحظوة وسطها، ويكتب له الانتشار والذيوع، فما غاب اسمه، ولا مُحِيَ رسمه عبر الزمن.

وقد أسهب الأستاذ المختار التليلي بعرض قائمة، من أسماء العلماء الذين استفادوا من «المقدّمات المهّدات» في كتبهم، واعتمدوه في جملة مصادرهم، وأكثروا النقل منه بالنصّ، أو الاقتباس بالمعنى، ويمكن أن يرجع إليه من رغب بالاستزادة في هذا الصدد[45].

ولايزال الباحثون -إلى يوم النّاس هذا- والمشتغلون بالفقه الإسلامي عموما، والفقه المالكي خصوصا، يعدّون كتاب «المقدمات» لابن رشد الجد، مرجعا فقهيا أساسياً، ويستشهدون به، ويحيلون عليه، وهوامش الدراسات والمؤلفات المعاصرة، وفهارس مصادرها، خير دليل على ذلك.

ولا تقف القيمة العلمية للكتاب فقط عند ما يتضمّنه من مادة فقهية فروعيّة غنيّة، واستيعابه لمعظم الاختلافات، واستقصائه لمختلف الأقوال والروايات داخل المذهب، مع التحرّي التامّ والضبط الكامل؛ بل إنّ الأمر يتعدّى ذلك إلى الاعتناء بتوجيهها، وبيان مآخذها، وتمييز صحيحها من سقيمها.

وفوق ذلك تظهر قيمته بصورة جليّة كذلك، من خلال ما حواه من الاستدلالات العقلية والنقلية، وما اشتمل عليه من ربط الأحكام الجزئية بالمقاصد الكلّية، وردّ الفروع الفقهية إلى أصولها الاجتهادية، وتنصيصه على مواطن الإجماع، وتحرير محلّ النزاع بين المذاهب في العديد من المسائل، وتوضيح ما يتبنّاه من اختيارات، وما يميل إليه من اجتهادات في أدب جمّ، ودون عصبية.

وما من شكّ أنّ هذا كلّه من شأنه، أن يقدح زناد الاجتهاد في الطالب المنكبّ على الكتاب، ويأخذ بيديه للترقي في مدارجه، ويستثير موهبته، ويدرّبه على الاستنباط وحسن النظر والاستدلال، ويربّيه على سعة الصدر واستيعاب الخلاف، وتغليب أسلوب الحوار والمناقشة، والتأدّب مع الفقهاء على اختلاف مذاهبهم.

المبحث الثالث: معالم المنهجية التي يتأسس عليها بنيان الكتاب:

أولا: المعالم التي حدّدها المصنّف:

لقد حدد الإمام ابن رشد منهجه منذ البداية، وأوضح المسلك الذي اعتمده، والطريق الذي سلكه، بصورة عامّة، فذكر في مقدّمة الكتاب، بأنّه سيجمع فيه للطلاب ما كان يورده عليهم في دروسه عند

استفتاح كتب المدوّنة، وفي أثناء بعضها، «.. ممّا يحسن المدخل به إلى الكتاب، وإلى ما استُفتِحَت عليه من فصول الكلام، وتعظم الفائدة ببسطه وتقديمه وتمهيده، من معنى اسمه، واشتقاق لفظه، وتبيين أصله من الكتاب والسنّة، وما اتفق عليه أهل العلم من ذلك وما اختلفوا فيه، بوجه بناء مسائله عليه وردّها إليه، وربطها بالتقسيم لها والتحصيل لمعانيها، ....» قال: «ووصلت ذلك ببعض ما أستطرد القول فيه من أعيان مسائل وقعت في المدونة ناقصة مفرّقة، فذكرتها مجموعة ملخّصة، مشروحة بعللها مبيّنة ..»[46].

وسأحاول تحليل هذا الكلام، وتقويمه في شكل عناصر، كالآتي:

1 - أعلن ابن رشد بأنّه سيستفتح أوائل الكتب ببيان معنى اسمها واشتقاق لفظها، وقد مضى في ذلك في كثير منها،كما فعل على سبيل المثال: في مطلع كتاب الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والعقيقة، والإيلاء، والكفالة، والقراض، والجراحات[47].. وغيرها.

غير أنّه لم يلتزم بهذا العمل في جميع الكتب التي طرقها، بل مرّ على عدد منها دون شرح ما يحتاج إلى شرح من ألفاظها، ولا إيضاح لمدلولاتها، مثل: كتاب الجنائز، والنذور والأيمان، والذبائح، والضحايا، والنكاح، واللّعان، والصرف، وبيع الخيار[48] .. ونحوها.

2 - حرص الإمام في جلّ التراجم على ذكر أصل مشروعيتها، وحكمها من الكتاب والسنة، وما يرجع إليهما من الأدلة؛ كما هو الحال في: كتاب الصلاة، والصيام، والاعتكاف،

والـزكـاة، والـجـهـاد، والـحـج، والـنـذور والأيمان، والصيد، والنكاح، والصرف، وبيوع الآجال، وبيع الخيار، والاستبراء، والـكـفـالـة، والـحـوالـة، والـهـبـات، والـغـصـب، والـصـلـح، والـقـراض، الوصايا، والسرقة[49] ... وغيرها؛ حتّى إنّه قد أوفى على الغاية في هذا الشأن أو قارب، إذ لم أجده خالف ذلك إلاّ في مطلع كتاب المرابحة[50].

ويجدر التنبيه -هنا- إلى أنّ الإمام ابن رشد-رحمه الله-قد وعد القارئ بأنّه يسعى للتأصيل للتراجم والأبواب، وذكر أدلتها الكلّية، ورد مسائلها الفرعية إليها وبنائها عليها، ولم يدَّع أنّه سيؤصِّل لجميع جزئيات المسائل وأفرادها على حِدَة. وحينئذ فلا وجه -في تقديري- للانتقاد الذي وجّهه إليه الدكتور مختار التليلي-رحمه الله- في هذه الحيثية، وما استشهد به من المسائل التي لم يصِلها المصنّف بأصولها[51].

3 - اعتنى ابن رشد-رحمه الله- كثيرا بذكر أماكن الإجماعات بين المذاهب الفقهية عموما، كما أنّه قد اهتمّ -أيضا- ببيان مواطن الإتفاقات داخل المذهب المالكي خصوصا، والشواهد على ذلك كثيرة ووفيرة في الكتاب، في شتى المسائل والأبواب[52].

4 - كثيرا ما يتعرّض الإمام للخلاف الفقهي العالي، ويورد أقوال الفقهاء من مختلف المذاهب. ومن عادته أن ينطلق من رأي المالكية، ويجعله أساسا للمقارنة، ثمّ يشير إلى بقية المذاهب بالتبع، إمّا على سبيل المساندة أو المعارضة، وربما عرض بعض أدلّة المخالفين-دون إسهاب-؛ وهذا هو الغالب[53].

وفي بعض المرّات، قد يطيل النفس في سرد الأدلة، ويلج باب المناقشة،

كما كان منه لدى كلامه عن الاختلاف الحاصل في تأويل آية الوضوء جملة وتفصيلا، وما يتفرّع عليه من مسائل فقهية؛ وحكم تارك الصلاة؛ وقصر المسافر للصلاة مع الأمن؛ والاختلاف الحاصل في كراء الأرض؛ وحكم المساقاة[54]،... وغيرها.

ولكن في أحيان كثيرة أخرى -بالمقابل- يترك الإمام إجراء الدراسة المقارنة تماما، ويكتفي بشرح المذهب فقط، وسوق الروايات الواردة عن الإمام مالك، وما اتّفق عليه أصحابه وما اختلفوا فيه من ذلك[55].

5 - لربّما جاءت بعض المسائل ناقصة ومفرّقة، أو اختلفت فيها الأجوبة في «المدونة»؛ فيسعى ابن رشد لجمع شتاتها، وحلّ غوامضها، حتّى وإن أدى ذلك إلى التطويل في بعض هذه المسائل المشكلة، ومن الشواهد على حسن تصرّفه في ذلك:

- ما وقع منه في «كتاب بيوع الآجال» من تحصيل وتلخيص مسائله التي وقعت متفرّقة في «المدونة» وغير مستوعبة بجميع فروعها، فجمعها، ورتّبها، وشرح معانيها[56].

- وما صنعه بخصوص ما يُعرف بمسألة «الستة كفلاء» الواقعة -في «كتاب الكفالة» من المدونة-، حيث إنّه أكمل ما نقص منها، وبيّن ما أشكل فيها، وسهّل بذلك التعامل مع فروعها الحسابية الكثيرة التي يعسر إحصاؤها، ويطول استقصاؤها[57].

- ومن هذا القبيل أيضا، ما وصل به القول في «كتاب الولاء» من الكلام في الفرائض، مع أنّه لم يقع منها في المدونة إلاّ فريضة واحدة ناقصة -كما قال-، فزاد من عنده جملة مختصرة في هذا الباب على مذهب الإمام مالك[58].

ثانيا: المعالم التي لاحظها الباحث:

إلى جانب ما صرّح به المؤلّف من معالم منهجيّته، وطريقة عمله، حاولت أن أضيف بعض الملامح والملاحظات الأخرى التي سجّلتها خلال قراءتي للكتاب، وسألخّص أهمّ ما اجتمع لي من ذلك في النقاط التالية:

1 - اعتمد المصنّف بوجه عام خطة محكمة، هي أشبه ما تكون بالطريقة المنهجية المعاصرة. حيث إن مادته ومعلوماته جاءت في معظمها منتظمة، يمكن هيكلتها إجمالا في: مقدمة، ومدخل تمهيدي، وصلب الكتاب الذي جاء مقسّما إلى عدّة كتب وفصول، ثمّ الخاتمة.

- **فالمقدمة:** أشاد فيها بتصنيفه، وتكلّم عن سبب تأليفه، واستعرض طريقته فيه.

- **والمدخل التمهيدي:** تلوح معالم تقسيمه إلى ثلاثة مباحث على سبيل الإجمال.

فالفصول الأولى من ص (11إلى21)، تشكّل مع بعضها وحدة موضوعية، احتوت على مقدّمات ضرورية في العقيدة وأصول الدين، وهذا هو المبحث الأول.

والفصول التي تليها من ص (26إلى42)، اشتملت على مسائل مهمّة من أصول الفقه، وهذا هو المبحث الثاني.

والفصول التي بعدها من ص (43إلى52)، تتعلّق بفضل طلب العلم وتعليمه، وما يستعان به على تحصيله، وما أشبه ذلك. وهذا هو المبحث الثالث.

ومن الملاحظات الشكلية، والمؤاخذات المنهجية التي يمكن أن

تتوجّه في هذا الصدد، حصول شيء من الاضطراب في ترتيب الفصول، حيث وقع الكلام في جملة من المسائل العقدية متزحزحا عن محلّه الأول، وورد في آواخر المدخل، كتحرير القول في تعريف الإيمان، والفرق بينه وبين الإسلام، ومناقشة مسألة زيادته ونقصانه...؛ ولا أعلم إن كان هذا التداخل من عمل الإمام ابن رشد، أم أنّه وقع بطريق الخطأ في ترتيب أوراق مخطوطة كتاب المقدمات ؟.

- وفي صلب الكتاب: شرع في تفصيل الأحكام الفقهية المتعلّقة بالعبادات والمعاملات، وقد جرى ابن رشد في ترتيبه، على نسق المدوّنة وماشى تراجمها، بداية من كتاب الطهارة إلى كتاب الجنايات، إلاّ شيئاً يسيراً قدّم فيه وأخّر، وذلك لمّا قدّم كتابي الصيام والإعتكاف على كتاب الزكاة، وكتاب الجهاد على كتاب الحجّ.

وبالنظر إلى غزارة المادة المدروسة، وتشعّباتها المختلفة، فقد اختار الإمام أن يقسّم كلّ كتاب إلى مجموعة من الفصول.

- وأمّا الخاتمة: فتتمثّل في «كتاب الجامع»، الذي حوى ما تهمّ معرفته من عيون السيرة، وفصولا متنوعة في الآداب الشرعية، والأخلاق المرعية والفضائل.

2 - من الواضح أنّ الإمام ابن رشد- رحمه الله- كان يحاول أن يجعل من كتاب «المقدمات الممهدات» في كثير من المواضع، ميدانا تطبيقيا لبناء الفروع على الأصول، وربط الأحكام الجزئية بالمقاصد الكلّية، سعيا منه للأخذ بأيدي الطلبة في مدارج الاجتهاد، وتنمية ملكة الاستنباط لديهم، وتدريبهم على طرق استثمار الأحكام الشرعية، انطلاقا من الأدلّة العقلية والنقلية المتنوّعة.

وهـــذه ســمــة بـــــارزة في كتاب»المقدمات»، والشواهد عليها أكثر من أن تستقصى في هذا المقام؛ ومن ذلك قوله –على سبيل المثال-: (... وفي تعليق الله الأمر بالوضوء بإرادة الصلاة[59]، بيانٌ ظاهرٌ أنّ الوضوء يُراد للصلاة، ويُفعل من أجلها؛ وأنّه فرضٌ من فرائضها، وشرطٌ في قبولها وصحتها. قال رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور»، وقال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «لا يقبل الله صلاة امرئ أحدث حتى يتوضأ».

ودليلٌ واضحٌ على افتقاره إلى النيّة؛ لأنّ الله تعالى قد شرط في صفة فعله إرادة الصلاة. وفعله من أجلها، وإذا فعله تبرّدا، أو تنظّفا، فلم يفعله على الشرط الذي شرطه الله في فعله؛ وذلك يوجب أن لا يجزئه. وهذا أمر متفق عليه في المذهب؛ خلافا لأبي حنيفة وأصحابه في قولهم: إنّ الغسل والوضوء يجزئ بغير نية بخلاف التيمم؛ وخلافا للأوزاعي في قوله: إنّ الغسل والوضوء والتيمم تجزئ بغير نية.

والدليل على صحّة قول مالك، قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِۚ ٥﴾ [البينة: 5]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾ [غافر: 65]. والوضوء من الدين، فوجب أن لا يجزئ بغير نيّة.

وقوله –عليه الصلاة والسلام-: «إنما الأعمال بالنيات»؛ والوضوء عمل من الأعمال، فوجب أن لا يجزئ بغير نية.

ومن طريق القياس على من فرق في ذلك بين الوضوء والتيمم أن الوضوء طهارة تتعدى محل موجبها فافتقرت إلى النية كالتيمم ..)[60].

وكذا ما أورده بشأن المراد بالملامسة-في قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[النساء: 43]،قائلا: (وقد اختُلِف في قول الله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[النساء: 43]؛ فقيل المراد بذلك الجماع، روي ذلك عن عمر بن الخطاب ﷺ، وهو قول عبد الله بن عباس-رضي الله تعالى عنهما- ...؛ وإلى هذا ذهب أهل العراق، وحجّتهم: ما روي عن عائشة-رضي الله عنها- « أنّ رسول الله ﷺ كان يقبّلها ثمّ يخرج إلى الصلاة، فلا يتوضأ». وقوله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: 43]. قالوا فالملامسة مفاعلة من اثنين فلا يكون إلا الجماع.

وقيل: إن المراد به ما دون الجماع من القبلة والمباشرة واللمس، وهو قول عبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود. وتأوّل إسماعيل القاضي مثله على عمر بن الخطاب، في قوله: «إنّ الجنب لا يتيممّ»؛ وقال به جماعة من التابعين، وإليه ذهب مالك وأصحابه. والدليل على ذلك أنّ الله عز وجل قد ذكر في أوّل الآية ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾[المائدة: 7] فلو كان معنى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: 43] الجماع؛ لكان مكرّرا لغير فائدة ولا معنى.

ودليل آخر؛ وهو أنّ لفظ «الملامسة» حقيقة في اللّمس باليد ومجاز في الوطء، وحمل الكلام على الحقيقة أولى من حمله على المجاز.

ودليل ثالث؛ وهو أنّ الملامسة واقعة على التقاء البشرتين، فإذا كانت

كذلك لم يخل اللمس باليد من أن يكون أولى بإطلاق هذا الاسم عليه من الجماع فيقتصر عليه، أو أن يكون هو وغيره من أنواعها سواء فيجب حمل الظاهر على عمومه في كل ما يقع عليه الاسم.

ولأنّ الآية قد قرئت أو لمستم النساء، ولا خلاف أن ذلك لغير اللمس باليد؛ فصح ما ذهب إليه مالك-رحمه الله-) [61].

وغير ذلك كثير، وكثير جدًّا من الشواهد[62].

3 - إذا تتبّعنا قوالب اللفظ التي استعملها الإمام ابن رشد-رحمه الله، لألفيناه يستخدم عبارات مفهومة، وكلمات واضحة، أغلبها في متناول القاريء والدارس، بحيث لا تستشعر وأنت تقرأ كلامه أيّ تكلّف، أو تعقيد.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على الأسلوب وطريقة العرض، فإنّنا سنصادف أسلوبا مرناً سهلاً، وعرضا محبّبا جزلا، ونلاحظ لدى المؤلّف عناية بالتقريب والترتيب، وجودة التقسيم والتنظيم، ونلمس حرصه على تلافي الاستطراد الطويل الذي يشتّت الذهن، ويخرج عن المقصود، ورغبته في تجنّب التكرار لغير حاجة، بالإحالة إلى ما سبق ذكره، أو ما سيأتي في مواضعه ...

الخاتمة:

إلى هنا منتهى الكلام؛ راجيا في الختام، أن أكون قد أسعفت حاجة قاري هذا المقال، ولبيت رغبته في الاطّلاع على أنموذج رائق، ونهج فائق من مناهج التأليف، وطرائق التصنيف في المذهب المالكي.

وما هو إلاّ مجرّد تعريف وتمثيل، لما هو بأمسّ الحاجة إلى الإثراء والتثمين، من تراث علماءنا الأقدمين، ومحاولة لتسليط الضوء عليهم، والكشف عن بعض جوانب الإبداع لديهم.

كما أنّه دعوة لسبر طرائقهم، والاستفادة من جهودهم في بناء المناهج، ووضع البرامج، مع السعي للتجديد في الوسائل، واستعمال ما استحدث من التقنيات والبدائل، حتى نواكب حركة العصر الذي نعيش فيه ولا نتخلّف عنها.

والحمد لله تعالى أولا وآخرا.

مصادر البحث ومراجعه:

- **ابن الأبار:** التكملة ؛ تح: عبد السلام الهراس، دار الفكر -بيروت، ط: 1415 - 1995.

- **ابن بشكوال:** الصلة؛ تح: إبراهيم الأبياري، ضمن الكتبة الأندلسية، دار الكتاب المصري-القاهرة ودار الكتاب اللبناني- بيروت، ط1: 1410 - 1989.

- **ابن بيه:** الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين؛ دار الأندلس الخضراء-جدة ودار ابن حزم- بيروت، ط1: 1421 - 2000.

- **التليلي:** ابن رشد وكتابه المقدمات؛ الدار العربية للكتاب-طرابلس، ط: 1988.

- **ابن تيمية:** مجموع الفتاوى؛ جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم بمساعدة ابنه أحمد، مكتبة المعارف- الرباط، د.ت.ط.

- **الحطاب:** مواهب الجليل؛ تح: زكريا عميرات، دار عالم الكتب- الرياض، طبعة خاصة: 2003-1423.

- **ابن خلدون:** المقدمة؛ دار الكتب العلمية-بيروت، د.ت.ط.

- **ابن خير:** الفهرسة؛ تح: إبراهيم الأبياري، ضمن الكتبة الأندلسية، دار الكتاب المصري-القاهرة ودار الكتاب اللبناني- بيروت.ط1: 1989-1410.

- **الذهبي:** سير أعلام النبلاء؛ تح: مجموعة من باحثين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط9: 1413 - 1993.

وتاريخ الإسلام؛ تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي-بيروت، ط1: 1414 - 1994.

وتذكرة الحفاظ؛ تح: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط1: 1419-1998.

- **ابن رشد الحفيد:** بداية المجتهد؛ دار الحديث- القاهرة، ط: 1425-2004.

- **ابن رشد:** البيان والتحصيل؛ تح: محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط2: 1408-1988.

والمقدمات الممهدات؛ تح: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط1: 1408-1988.

- **الزركلي:** الأعلام؛ دار العلم للملايين، ط15: 1423-2002.

- الصفدي: الوافي بالوفيات؛ تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث-بيروت، ط1: 1420-2000.

- **ابن عاشور:** أليس الصبح بقريب؛ دار سحنون للنشر-تونس ودار السلام-القاهرة، ط1: 1427-2006.

- **ابن العماد:** شذرات الذهب؛ دار الكتب العلمية-بيروت، د.ت.ط.

- **ابن فرحون:** الديباج المذهب؛ تح: مأمون الجنّان، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1: 1417-1996.

- **القاضي عياض:** الغنية؛ تح: ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط1: 1402-1982.

- **المقري:** نفح الطيب؛ تح: إحسان عباس، دار صادر- بيروت، ط1: 1388-1968.

- **النباني:** تاريخ قضاة الأندلس؛ تح: لجنة من الباحثين، دار الآفاق الجديدة، ط5: 1403-1983.

الهوامش

1 -ينظر: القاضي عياض: الغنية ص(54) [تح: ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط1: 1402 - 1982]؛ ابن بشكوال: الصلة (3 /839) [تح: إبراهيم الأبياري، ضمن الكتبة الأندلسية، دار الكتاب المصري-القاهرة و دار الكتاب اللبناني-بيروت، ط1: 1410 - 1989]؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء (19 /501) [تح: مجموعة من باحثين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط9: 1413 - 1993] وتاريخ الإسلام (35 /443) [تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي-بيروت، ط1: 1414 - 1994] و تذكرة الحفاظ (4 /46) [تح: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط1: 1419 - 1998]؛ النبهاني: تاريخ قضاة الأندلس ص(98 - 99) [تح: لجنة من الباحثين، دار الآفاق الجديدة، ط5: 1403 - 1983]؛ الحطاب: مواهب الجليل (1 /120) [تح: زكريا عميرات، دار عالم الكتب-الرياض، طبعة خاصة: 1423 - 2003]؛ الزركلي: الأعلام (5 / 316) [دار العلم للملايين، ط15: 1423 - 2002].

2 -ينظر المصادر السابقة.

3 -ينظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى (4 / 164)و(6 /518)و (13 /260)و (19/157) [جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم بمساعدة ابنه أحمد، مكتبة المعارف- الرباط، د.ت.ط]؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء (21 /308 و326 و139)، وتاريخ الإسلام (35 /444)؛ الصفدي: الوافي بالوفيات(2/81) [تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث-بيروت، ط1: 1420 - 2000]؛ ابن فرحون: الديباج المذهب

ص(111) [تح: مأمون الجنّان، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1: 1417 - 1996]؛ االمقري: نفح الطيب(3 /192) [تح: إحسان عباس، دارصادر-بيروت، ط1: 1388 - 1968]؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(145) [الدار العربية للكتاب-طرابلس، ط: 1988].

4 -هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن الإمام أبي الوليد بن رشد القرطبي؛ ويسمّيه الأوربيون (Averroes). مولده قبل موت جدّه بشهر، سنة (520هـ). وقد برع في علوم عدّة، وأبدع في فنون شتى، من فقه، وأصول، وطبّ، وفلسفة .. وغيرها. وولي قضاء قرطبة؛ إلاّ أنّه تعرض بعدها للمحنة، وهُجِر لاشتغاله بالفلسفة، ثمّ عفي عنه وأعيد له اعتباره. وتوفّي سنة (595هـ) تاركا مصنفات عديدة ومفيدة؛ منها: «بداية المجتهد» في الفقه، و«الضروري في أصول الفقه»، و«الكليات» في الطب، ...وغيرها. ينظر: ابن الأبار: التكملة (2 /73 - 74) [تح: عبد السلام الهراس، دار الفكر-بيروت، ط: 1415 - 1995]؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء (21 /308 - 309)؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص(378 - 379)؛ الزركلي: الأعلام (5 /318).

5 -ابن خير: الفهرسة (2 /591) [تح: إبراهيم الأبياري، ضمن الكتبة الأندلسية، دار الكتاب المصري-القاهرة ودار الكتاب اللبناني- بيروت. ط1: 1410 - 1989]؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص(373).

6 -ينظر: ابن بشكوال: الصلة (3 /840)؛ النبهاني: تاريخ قضاة الأندلس ص(99)؛ الحطاب: مواهب الجليل (1 /120)، ابن العماد: شذرات الذهب (4 /62) [دار الكتب العلمية-بيروت،

د.ت.ط] ؛ الزركلي: الأعلام (5 /316)؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(141 - 142)؛ ابن رشد: البيان والتحصيل، مقدمة المحقق محمد حجي (1 /13) [دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط2: 1408 - 1988].

7 -ص(373). وليس بعيدا أن يكون هذا خطأ، تسرّب خلال النسخ، أو حصل أثناء الطبع، على اعتبار أنّ التاريخين المذكورين قريبان جدًّا من بعضها عند كتابتهما بالحروف العربية كالآتي: (خمسون وأربعمائة/ خمس وأربعمائة)؛ والله أعلم بحقيقة الأمر.

8 -ينظر: ابن بشكوال: الصلة (3 /840)؛ وعنه: النبهاني: تاريخ قضاة الأندلس ص(99).

9 -وقد وصفه الإمام ابن فرحون- رحمه الله- بأنّه كان «من أهل العلم والجلالة والعدالة». ولم أقف على معلومات بشأن تاريخ ولادته، ولا بخصوص تاريخ وفاته بدقّة، ولكن إذا أخذنا بما ذكره الإمام ابن فرحون من أنّه كان حيًّا سنة (482هـ)، وقارنّا ذلك بتاريخ ولادة ابنه سنة (450هـ)-كما أسلفنا-؛ فهذا يعني أنّه عاش معه قرابة (32) سنة من حياته. تراجع ترجمته في: ابن فرحون: الديباج المذهب (1 /111)؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(84 - 85) وص(149).

10 -ينظر: ابن خلدون: المقدمة ص (461) [دار الكتب العلمية-بيروت، د.ت.ط].

11 -ينظر: المصدرنفسه ص (462).

12 - ينظر لمزيد من التفصيل: القاضي عياض: الغنية ص(55)؛ ابن بشكوال: الصلة (3 /839)؛ النبهاني: تاريخ قضاة الأندلس ص(98)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء (19 /502)، تاريخ

الإسلام له (35 / 443 - 444)؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص(374)؛ مواهب الجليل(1 /120)؛ الزركلي: الأعلام (5 /316 - 317)؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(151 وما بعدها)؛ ابن رشد: البيان والتحصيل، مقدمة المحقق محمد حجي(1 /13).

13 -وهو من كبار العلماء، وجلّة الفقهاء في عصره، ومدار طلبة الفقه في بلده.كان مسحضرا للمسائل، بصيرا بالنوازل، عارفا بالفتوى، وقد ولد سنة (427هـ) بقرطبة، وتوفي سنة (477هـ). ينظر: ابن بشكوال: الصلة (1 /114 - 115)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء (18 /563)؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص (103)؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(151 - 153).

14 -وقد اشتهر –رحمه الله- بعنايته بالحديث وعلومه، ونقله وروايته، مع ثقته، وجلالة قدره، وعلوّ إسناده. مولده سنة (393هـ)، وتوفّي سنة (478هـ). وقد أطال الله تعالى في عمره «حتّى شارك الأصاغر فيه الأكابر»-كما قاله مترجموه-. ولهذا تمكّن إمامنا ابن رشد من الظفر بإجازته له في مروياته، واتّصال سنده بإسناده. ينظر: ابن بشكوال: الصلة (1 /115 - 117)، الحموي: معجم البلدان(2/460) و(5 /119)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (18 /567 - 568)، الزركلي: الأعلام (1 /185)، التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(153 - 156).

15 -وكان –رحمه الله- واسع المعرفة، حافل الرواية، حتّى عُدّ من أعلم الناس -ببلاد الأندلس في عصره- بمعاني القرآن والحديث، وأقومهم بالأخبار، والأنساب، وأحفظهم للسان العرب. ولد بقرطبة سنة (400هـ)، وتوفي سنة (489هـ). ينظر: ابن

بشكوال: الصلة (2 /530 - 532)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (19 /133 - 134)؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص(257)، التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(158 - 164)؛ الزركلي: الأعلام (4 /159).

16 -وكان –رحمه الله- من حفاظ المذهب، وأوعية الفقه، حاذقا بالفتوى، مقدّما للشورى، ولد سنة (404هـ) وتوفي سنة (497هـ). ينظر: ابن بشكوال: الصلة (3 /823)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (19 /199)؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص(370)، التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(164 - 166).

17 -ينظر: البيان والتحصيل(1 /30)، الغنية ص(54)؛ ابن بشكوال: الصلة (3 /840)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء (19 /502)؛ النباني: تاريخ قضاة الأندلس ص(99)؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص(374)؛ الحطاب: مواهب الجليل(1 /120)؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(209 - 210).

18 -ينظر: ابن رشد: البيان والتحصيل(1 /30 - 31).

19 -ينظر: ابن خير: فهرسة ابن خير (2 /590 - 591)، ابن بشكوال: الصلة (3 /840)، ابن رشد: البيان والتحصيل، مقدمة المحقق محمد حجي(1 /16 - 18)، التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(307).

20 - كان –رحمه الله- معتنيا بالفقه، جامعا للحديث، وهو الذي اعتنى بجمع المسائل التي سئل عنها الإمام ابن رشد الجد، مع أجوبته عليها، وتولّى قراءتها عليه. وقد أسندت إليه إمامة المسجد الجامع بقرطبة،

ومهمة التدريس به في وقته توفي سنة (543هـ). ينظر: ابن الأبار: المعجم ص (162 - 163)؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(243 - 245).

21 -وهو ممّن لازم الإمام ابن رشد الجدّ ملازمة خاصّة؛ وروى عنه الكثير من كتبه. وقد ولي قضاء الجماعة بقرطبة. ولد سنة(472هـ)، وتوفي سنة (552هـ). ينظر: ابن بشكوال: الصلة (2 /534 - 535)؛ ابن الأبار: المعجم ص (257 - 259)؛ ابن فرحون: الديباج المذهب (257)؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(251).

22 -وهو الإمام الشهير المتبحّر، الحافظ المفسّر، الفقيه الأصولي؛ أصله من الأندلس، غير أنّ جدّه تحوّل إلى بلاد المغرب، وبها ولد سنة (476هـ)؛ فحصّل مبادئ العلم بها، ثمّ قدم الأندلس فجلس عند العديد من شيوخها، ومن بينهم: الإمام ابن رشد الجد -رحمه الله-، الذي ناوله بعض كتبه، وأجاز له سائرها. وقد ولي القضاء في عدّة أماكن، وكانت وفاته سنة (544هـ). ينظر: ابن بشكوال: الصلة (2 /660 - 661)؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان (3 /483– 485)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء (20 /213 - 218)؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص(270 - 273)؛ الزركلي: الأعلام (5 /99).

23 -ينظر: القاضي عياض: الغنية ص(54)، ابن بشكوال: الصلة (3 /840)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (19 /502)، النبهاني: تاريخ قضاة الأندلس ص(99)؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص(374)، ابن بيه: الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين ص(189 - 190)[دار الأندلس الخضراء-جدة و دار ابن حزم- بيروت، ط1: 1421 - 2000].

24 -من ذلك ريح الفتنة، وثورة العامة ضدّ المرابطين في قرطبة بين سنتي (514هـ) و(515هـ) حيث إنّ الإمام-رحمه الله- قد قام بالتعاون مع وجوه قرطبة وأعيانها بتهدئة الناس، ولعب دوراً بارزاً في إرساء الصلح. ينظر: القاضي عياض: الغنية ص(54)؛ ابن الأثير، عز الدين: الكامل في التاريخ (9 /187 - 188)؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(273 - 279)؛ ابن بيه: الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين ص(190).

25 -ينظر: القاضي عياض: الغنية ص(54)؛ ابن خير: الفهرسة (1 /299)؛ ابن بشكوال: الصلة (3 /840)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء(19 /502)، وتاريخ الإسلام له (8 /444)؛ النبهاني: تاريخ قضاة الأندلس ص(99)؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص(374)؛ الحطاب: مواهب الجليل(1 /120)؛ البغدادي: هدية العارفين (2 /85) [أعادت طبعه بالأوفست دار إحياء التراث العربي- بيروت عن طبعة وكالة المعارف الجليلة- إستانبول، ط: 1951]؛ الزركلي: الأعلام (5 /317)؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(309)؛ ابن رشد: البيان والتحصيل، مقدمة المحقق محمد حجي(1 /15).

26 -وقد طبع قسم منه، لأوّل مرّة على هامش المدوّنة، سنة (1324هـ/1904م) بالمطبعة الخيرية بمصر. ثمّ طبع بعدها-مستقلا- عدّة طبعات؛ غير أنّ هذه الطبعات كانت ناقصة. وأول طبعة كاملة للكتاب كانت في سنة (1408هـ/1988م) من قبل دار الغرب الإسلامي-بيروت، بعناية الأستاذ محمد حجّي. ينظر: التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص) 579 وما بعدها(؛ ابن رشد: المقدمات، مقدمة المحقق محمد حجّي(1 /6).

27- ينظر: القاضي عياض: الغنية ص(54)، ابن خير: الفهرسة (1/ 299)، ابن بشكوال: الصلة (3/ 840)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء (19/ 502) وتاريخ الإسلام (8/ 444)؛ النبهاني: تاريخ قضاة الأندلس ص(99)؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص(374)؛ الحطاب: مواهب الجليل(1/ 120)؛ البغدادي: هدية العارفين (2/ 85)؛ الزركلي: الأعلام (5/ 317)؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(309 وما بعدها). ويجدر التنبيه إلى أنّ تسمية الكتاب قد وقع فيها اختلاف بين المصادر، وما أثبتّه في الصلب هو الاسم الذي اختاره وصحّحه الأستاذ محمد حجّي في مقدمة تحقيق البيان والتحصيل(1/ 6 - 7).

28 -«المستخرجة» في فقه الإمام مالك، وتسمّى أيضا«العتبية» نسبة إلى مؤلّفها الذي جمع في هذا الكتاب سماعات كثيرة عن الإمام مالك وتلاميذه؛ إلاّ أنّه توسّع في ذلك، فأورد عددا من الروايات المطروحة، والمسائل الغريبة والشاذة، فكان كتابه بحاجة إلى تنقيح وتصحيح. ينظر: ابن فرحون: الديباج المذهب ص(336 - 337)؛ المقري: نفح الطيب(2/ 215 - 216)، الزركلي: الأعلام (5/ 307).

29 -وقد عمد الأستاذ محمد حجّي إلى تحقيقه بمعيّة مجموعة من الباحثين، وأولى طبعاته كانت سنة (1404هـ/1984م)، ثمّ توالت الطبعات بعد ذلك. ينظر: ابن رشد: البيان والتحصيل، مقدمة المحقّق محمد حجي(1/ 21).

30 -وتسمى -أيضا-: «النوازل»، و«المسائل»، و«الأجوبة»، و«جوابات ابن رشد»...وغير ذلك. ينظر: ابن خير: الفهرسة (1/ 299)؛ ابن الأبار: التكملة

(3 /91)؛ الزركلي: الأعلام (5 /317)؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(340 وما بعدها)؛ ابن رشد: البيان والتحصيل، مقدمة المحقق محمد حجي(1 /18)؛ ابن رشد: الفتاوى، مقدمة المحقق المختار التيلي(1 /35 وما بعدها). وقد أثبتّ هنا العنوان الذي اختاره هذا الأخير.

31 -وهو في الأصل أطروحة دكتوراه دولة في العلوم الإسلامية. وأوّل طبعة لها كانت سنة (1407هـ/1987 م) من قِبَل دار الغرب الإسلامي في بيروت، لتتوالى الطبعات بعد ذلك.

32 -ينظر: (1 /333). ويراجع: ابن رشد: البيان والتحصيل، مقدمة المحقق محمد حجي(1 /19)؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(348).

33 - ينظر: القاضي عياض: الغنية ص(54)و(55)؛ ابن خير: الفهرسة (2 /590 - 591)؛ ابن بشكوال: الصلة (3 /840)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء (19 /502) وتاريخ الإسلام (35 /444)، وتذكرة الحفاظ (4 /46)؛ النبهاني: تاريخ قضاة الأندلس ص(99)؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص(374)؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(295 - 297)؛ ابن رشد: البيان والتحصيل، مقدمة المحقق محمد حجي(1 /18).

34 -ينظر: ابن خير: الفهرسة (2 /590 - 591)؛ ابن بشكوال: الصلة (3 /840)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء (19 /502) وتاريخ الإسلام (35 /444)؛ النبهاني: تاريخ قضاة الأندلس ص(99)؛ الحطاب: مواهب الجليل (1 /120)؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص(374)؛ التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(301 - 302).

35 -الصلة (3/ 839).

36 -الغنية ص(54). ونحوه عند ابن فرحون في «الديباج المذهب» ص(374).

37 -بغية الملتمس (1/ 74).

38 -أليس الصبح بقريب ص (144) [دار سحنون للنشر-تونس و دار السلام-القاهرة، ط1: 1427 - 2006].

39 -التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص(413) .

40 -ابن رشد: البيان والتحصيل، مقدمة المحقق محمد حجي(1/ 14).

41 -ابن رشد: البيان والتحصيل (1/ 31).

42-ينظر: القاضي عياض: الغنية ص(54)؛ ابن بشكوال: الصلة (3/ 840)؛ ابن خير: الفهرسة (1/ 299).

43 -ابن رشد الحفيد: بداية المجتهد (1/ 85) [دار الحديث- القاهرة، ط: 1425هـ - 2004 م]. ويراجع-أيضا-: المصدر نفسه (4/ 429).

44 -ينظر: ابن رشد: المقدّمات (1/9 - 10) [تح: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط1: 1408 - 1988].

45 -ينظر: التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ص (563 وما بعدها)..

46 -المقدمات (1/ 9 - 10).

47 -ينظر: المصدر نفسه (1/ 137 - 138)،(1/ 237 - 238)،(1/ 271 - 272)، (1/ 379)، (1/ 447)، (1/ 615 - 617)، (2/ 373 - 376)، (3/ 5 - 6)، (3/ 321 - 322).

48 -ينظر: المصدر نفسه (1/ 225)، (1/ 403)، (1/ 423)، (1/ 431)، (1/ 451)، (1/ 629)، (2/ 5)، (2/ 85).. الخ.

49 -ينظر: المصدرنفسه (1/ 139)، (1/ 238 - 239)، (1/ 258 - 259)، (1/ 272 - 273)، (1/ 343)، (1/ 380)، (1/ 403 - 404)، (1/ 417)، (1/ 431)، (1/ 451)، (2/ 5)، (2/39 - 42)، (2/85-86)، (2/ 141-142)، (2/ 163 - 164)، (2/ 375 - 376)، (2/ 403 - 404)، (2/ 441 - 443)، (2/ 487 - 488)، (2/ 515 - 516)، (3/ 6 - 7)، (3/ 111)، (3/ 171 - 172)، (3/ 207 - 208).

50 -ينظر: المصدر نفسه (2/ 125 وما بعدها).

51 -ينظر: ابن رشد وكتابه المقدمات (ص556 - 557).

52 -ينظر –على سبيل المثال-: ابن رشد: المقدمات (1/ 67)، (1/ 82)، (1/ 186)، (1/ 245)، (1/ 294)، (1/ 564)، (2/ 5)، (2/ 408)، (2/548)... الخ.

53 -ينظر -على سبيل المثال-: المصدر نفسه (1/ 103)، (1/ 112)، (1/ 127 - 129)، (1/ 190 - 193)، (1/ 256 - 257)، (1/ 323 - 324)، (2/ 175 - 176)، (2/ 471).

54 -ينظرعلى التوالي: المصدرنفسه (1/ 71 وما بعدها)، (1/ 141 وما بعدها)، (1/ 208 - 212)، (2/ 222 وما بعدها)، (2/ 414 وما بعدها)، (2/548وما بعدها)

55 -ينظر -على سبيل المثال-: المصدرنفسه (1/ 67 - 68)، (1/ 125 - 126)، (1/ 185)، (1/ 548)، (2/ 410 - 411)، (3/ 211 - 214).

56-ينظر: المصدر نفسه (2/42- 53)..

57 -ينظر: المصدر نفسه (2/ 382 - 396).

58 -ينظر: المصدر نفسه (1 /141 - 151).

59 -يشير بذلك إلى ما جاء قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ..﴾ (الآية) [المائدة: 6] .

60 -المقدمات (1 /75).

61 -المصدر نفسه (1 /96 - 97).

62 -ينظر -على سبيل المثال-: المصدر نفسه: (1 /69)، (1 /88)، (1 /97 - 98)، (1 /101)، (1 /117)، (1 /127)، (1/136)، (1 /184)،(1 /227)، (1 /234)، (1 /267)، (1 /275)، (1 /366)، (1 /383)، (1 /411)، (2 /34 - 36)، (2 /96 - 97)، (2 /227)، (2 /276 - 277)، (2 /471)، (3 /172 - 173)، (3 /172 - 173)،...الخ.

مؤشرات تغييب الوسطية

الأستاذ إبراهيم شابو

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله الطاهرين وصحبه أجمعين. شاء الله أن يكون الرسول - ﷺ - خاتما للأنبياء والمرسلين، شاهدا على الأمة التي ميزها الله بالوسطية لتكون شاهدة على الناس فقال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لِّنَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه الوسطية التي تعتبر تيارا أصيلا مميزا للأمة عبر تاريخها العتيد ومجدها التليد، رغم ما تخلل بعض مساراتها من حالات استثنائية في الميل عن هذه الوسطية غلوا أو إفراطا أو تفريطا، ويريد البعض بجهل والبعض الآخر بسوء قصد أن يجعل الاستثناء قاعدة، وأمام هذا الوضع كان لزاما على العلماء والباحثين توضيح الوسطية باعتبارها -كما اتفق عليه القائمون على هذا الملتقى المبارك بأن الوسطية قيمة قرآنية- وهذه المحاضرة لا تخرج عن نطاق ذلك في توضيح المفاهيم والإشكالات المرتبطة بكلمة الوسطية لغة وشرعا،

وفي اصطلاح العلماء، وما هي المعايير والملامح التي تبرز هذه الوسطية رغم تعدد آراء العلماء في تحديدها.

ولما كان مصطلح المؤشرات في بعض معانيه يطلق على التقويم، تناولت المحاضرة مؤشرين أساسين فتغييب الوسطية مؤشر الجهل في فهم النصوص الشرعية و مقاصدها.

أما المؤشر الثاني تناول الظاهرة الشاذة -ظاهرة الغلو- التي يريد الآخر خاصة الغرب أن يضخما بل يلصقها بالإسلام وكل المسلمين، ومن ثم وجب التنبيه على دور الإعلام في بيان الوسطية، وهذا الملتقى المبارك وهذه المجلة وسائل إعلامية في إبراز وسطية السلام.

وفق الله الجميع وجعلهم متمسكين بالصراط المستقيم والحمد لله رب العالمين.

أولا : مفهوم المؤشرات

المؤشرات كلمة كثيرة الاستعمال في الحقل الاقتصادي بمعنى البند الإحصائي يبين تغير السعر والقيمة، وتستعمل الكلمة للدلالة على أداة ضبط إشارة محطة إذاعية لتوضيح الصوت أو تحويله. (انظر المعجم)

أما المعنى المقصود في موضوع ورقتنا هو المعنى اللغوي الغالب الدال على العلامة فمؤشرات تغييب الوسطية تدرس علامات وملامح غياب الوسطية تصورا وعملا وسلوكا، فالمؤشر هو أداة للقياس والتشخيص يسمح بالتقويم في المعالجة التربوية والتعليمية.

ثانيا: الوسطية وإشكالات المفهوم

1 - الملاحظات المنهجية التي تتعلق بكلمة الوسطية منها :

• كلمة الوسطية، كلمة شرعية وردت في الوحيين القرآن الكريم والسنة النبوية، وعليه فإن تأصيل المصطلح يستدعي استقراء النصوص الشرعية تصريحا وتلميحا.

• رغم عمق معنى الوسطية إلا أنها نادرة الاستعمال بل الكلمات الأكثر تداولا التيسير والرفق والسماحة والاعتدال ناهيك عن أضدادها خاصة الغلو والتشدد والعسر. (انظر مراحل تطور مفهوم الوسطية في الفكر المعاصر بحث مقدم في مؤتمر الوسطية)

• عرفت كلمة الوسطية في نهاية القرن الماضي وبدايات القرن الحالي فصارت عناوين لكتب العلماء والمفكرين (وأشهر من كانت كلمة بين في أسماء إصداراته الدكتور القرضاوي، وأمثلة ذلك الفقه الإسلامي بين الأصلة والمعاصرة، الفتوى بين الانضباط والتسيب، الاجتهاد بين الانضباط والانفراط، الثقافة الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، ثقافتنا بين الانغلاق والانفتاح... ناهيك عن كتبه التي تحمل الكلمة نفسها مثلا الوسطية في الإسلام).

كما نجد الكلمة في أخبار الإعلاميين، وكلام السياسيين، وعناوين لمؤسسات واتجاهات، ورواج الكلمة عند كثير من الناس خاصة المثقفين المتخاصمين فكريا زرع بلبلة في تحديد المصطلح، فهناك من يبحث في الوسطية معيار (انظر بحث الدكتور عبد الرحمان بن معلا اللويحق الموسوم «الوسطية معيار») وهناك من وقف وقفة فقه وتأمل مع جملة الوسطية في الدين، وهناك من ذهب إلى منحى المصطلح كما فعل إسلام فرحات.

• لما كانت كلمة الوسطية تستخدم عند البعض كرد فعل لإفرازات تيارات التطرف والغلو فغلب في كتابات هؤلاء الحديث عن نبذ الغلو وتتبع مظاهره وملامحه.

• الحديث عن الوسطية هو حديث عن ميزة لسمة، وعن السمة الغالبة البارزة فيها؛ أما غيابها عند البعض داخليا وخارجيا ما هو إلا استثناء ونشاز يريد البعض تضخيمه وإبرازه وتسليط الأضواء عليه بل إلصاقه بالدين الإسلامي الحنيف.

هذه ملاحظات لا تمنع من الوقوف على معنى الوسطية تصريحا وتلميحا.

2 - الوسطية في اللغة :

جاءت كلمة (وسط) في اللغة بعدّة معانٍ، لكنها مُتقاربة في مدلولها. قال ابن فارس: (وسط): الواو والسّين والطّاء: بناء صحيح يدلّ على العدل والنّصف.

وأعدل الشيء: أوسطه، ووسطه. قال الله عزوجل: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ البقرة: الآية [143]. ويقولون: ضربتُ وَسَطَ رأسِه - بفتح السين - ووسْط القوم - بسكونها -، وهو أوسَطُهم حسبًا - إذا كان في واسطةِ قومه وأرفعهم محلا وتأتي كلمة وسط بفتح السين وسكونها، وفتحها أكثر استعمالا.

ويمكن إجمال المعاني التي جاءت تدلّ عليها هذه الكلمة فيما يلي:

* (وسْط) بسكون السّين تكون ظرفًا بمعنى (بين)، قال في لسان العرب: وأمَّا الوسْط بسكون السّين فهو ظرف لا إسم، جاء على وزن نظيره في المعنى وهو (بين)، تقول: جلست وسْط القوم، أي: بينهم.

* وتأتي - وسَط بالفتح - اسمًا لما بين طرفي الشيء وهو منه، ومن ذلك: قبضت وسط الحبل، وكسرت وسط القوس، وجلست وسط الدّار.

* وتأتي - بالفتح أيضًا - صفة، بمعنى خيار، وأفضل، وأجود، فأوسط الشيء أفضله وخياره: كوسط المرعى خير من طرفيه، ومرعى وسط أي: خيار. وواسطة القلادة: الجوهر الذي وسطها، وهو أجودها، ورجل وسط ووسيط: حسن.

* وتأتي وسط - بالفتح - بمعنى عدل، قال ابن فارس: وسط: بناء صحيح يدلّ على العدل، وأعدل الشيء أوسطه ووسطه. وقال ابن منظور: ووسط الشيء وأوسطه: أعدله. وقال الفيروزآبادي: الوسط - محركة - من كل شيء: أعدله.

* وتأتي (وسط) بالفتح - أيضًا - للشيء بين الجيد والرديء.

قال الجوهري: «ويقال: شيء وسط: أي بين الجيد والرديء. ودليل ماذهب إليه الجوهري ما ورد في الحديث: «ولكن من وسط أموالكم فإنّ الله لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشرّه»

* ويقال: (وسط) لما له طرفان مذمومان، يراد به ما كان بينهما سالمًا من الذّمّ، وهو الغالب.

قال الراغب: وتارة يُقال لما له طرفان مذمومان ومثال ذلك: السّخاء وسط بين البخل والتّبذير، والشّجاعة وسط بين الجبن والتهوُّر و(الوسيط): المتوسّط بين المتخاصمين و(التوسط): بين الناس من الوساطة وهي الشفاعة.

و(التوسيط): أي تجعل الشيء في الوسط و(التوسيط): - أيضًا - قطع الشيء نصفين، و(وسوط الشمس): توسّطها السماء و وسوطا بمعنى

المتوسط المعتدل ووسيطا الحسيب الشريف والوسيط التوسط بين الناس. والوسط الرفعة والمكانة العلية والمكان الوسط لا يصل إليه العدو بسهولة، ولذلك صار معنى العزة والخيار من لوازم معنى الوسط عرفا فأطلقوه على الخيار والنفيس كناية فأوسط الشيء أفضله وخياره و(واسطة القلادة): الجوهر الذي في وسطها، وهو أجودها».

من خلال ذلك كله يتضح أن اللفظة كيفما تصرّفت فهي لا تخرج في معناها عن معاني العدل والفضل والخيرية، والنصف والبينيَّة، والتوسط بين الطرفين.

3 - الوسطية في القرآن الكريم والسنة النبوية :

- الوسطية في القرآن الكريم :

وردت كلمة وسط في القرآن الكريم في إطار التصريح في خمسة مواضع:

* قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ البقرة: الآية[143].

وقد جاء تفسير هذه الآية عن رسول الله - ﷺ - كما روى ذلك البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - ﷺ - : «يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب. فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ: ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ البقرة: [143] فذلك قول الله جل ذكره: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ البقرة:[143]، والوسط

العدل» وهو أحد المعاني المرادة ولكن لا يمنع من أن يكون هناك معانٍ أخرى.

قال الطبري في سياق تفسير هذه الآية: «وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى: الجزء الذي هو بين الطرفين مثل (وسط الدار) محرّك الوسط مثقّله، غير جائز في سينه التخفيف. وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط؛ لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلوّ فيه غلوّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيل هم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوسطها. وقد جرى على منواله القرطبي، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، ومن المعاصرين من جعل الوسطية التي قصدها الشارع دائرة مع عنصرين لا بد من توافرهما: الخيرية - البينية، فالجمع بين هذين العنصرين يثمر لنا الوسطية التي مدحها الله تعالى.

* قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ البقرة 238.

قال الخلوتي الحنفي:

«والصلاة الوسطى أي المتوسطة بينها على أن تكون الوسطى صفة مشبهة، أو الفضلى منها على أن تكون أفعل تفضيل تأنيث الأوسط وأوسط الشيء خيره وأعدله وهي صلاة العصر؛ لأنها بين صلاتي ليل وصلاتي نهار، ولقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب: (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً) وفضلها لكثرة اشتغال الناس في

وقتها بتجاراتهم ومكاسبهم واجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار، وقد نقل القول بكون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، ابن الجوزي في تفسيره ونسبه إلى جماهير أهل العلم، وذكر منهم علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبا أيوب، وابن عمر في رواية، وسمرة بن جندب، وأبا هريرة، وابن عباس في رواية عطية، وأبا سعيد الخدري، وعائشة في رواية، وحفصة، والحسن، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وعطاء في رواية، وطاووس، والضحاك، والنخعي، وعبيد بن عمير، وزر بن حبيش، وقتادة، وأبا حنيفة، ومقاتل في آخرين.

* قوله تعالى: ﴿... فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ...﴾ سورة المائدة89، والمراد بالأوسط هنا على الراجح المنزلة بين منزلتين، والنصف بين طرفين، وإن كان أصل اللفظ دائراً مع الأعلى والخيار والعدل، وقد أجمع العلماء على أن الوسط بمعنى الخيار هاهنا متروك، على الرغم من كون سياق الآية قد جعل معنى الأوسط مغايراً لمعناها اللغوي، فإنه من جهة أخرى يؤكد ما تقدم من كون اللفظ في أصله اللغوي يدور مع العدل والخيار.

* قوله تعالى﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ سورة القلم28، والأوسط هنا بمعنى الأحسن والأرجح عقلاً ورأياً، أو الأوسط سناً، أو الأعدل والأفضل.

* قوله تعالى:﴿ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ﴾ سورة العاديات5، والمعنى توسط جموع الأعداء.

فهذه الآيات جاء فيها لفظ الوسط صريحاً لا تخرج عن المعنى اللغوي

لأصل الكلمة، إلا أن هناك نصوصاً كثيرة جاء فيها معنى الوسطية في إطار ألفاظ أخرى؛ لتدل على هذا المعنى وفق منهجية قرآنية واضحة، والباحث لا يسعه أن يقف عند هذه النصوص بأجمعها؛ لكونها كثيرة، (للاستزادة انظر موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم المجلد الرابع ص 1352).

- الوسطية في السنة النبوية الشريفة:

إن المتتبع لنصوص السنة النبوية يظهر له أن السنة أتت بلفظ الوسط في إطاره الصريح، نهت عليه كذلك في سياق ألفاظ أخرى لا تخرج عن مقتضى معناه ومقصده وإن اختلفت معه في اللفظ (للاستزادة انظر موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم المجلد الرابع ص 1352 وما يتعلق بها من صفات العدل، القسط، الأنصاف...).

* فمن الأحاديث التي جاء فيها لفظ الوسط صريحاً قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة»، وقوله - ﷺ -: «**إذا وضع الطعام، فخذوا من حافته، وذروا وسطه، فإن البركة تنزل في وسطه**» فهذان حديثان جاء ذكر الوسط فيهما صريحاً ومعناه ظاهر وإن اختلف سياقه في الحديثين، فالمراد بالأوسط في الحديث الأول الأعدل والأفضل، فيكون موافقاً لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ البقرة:[143]، أما الحديث الثاني فعلته ظاهرة المعنى حيث جاء التصريح بكون البركة تنزل في وسطه أو في ذروته وأعلاه.

* قوله عليه الصلاة والسلام: «**عليكم هدياً قاصداً عليكم هدياً قاصداً فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه**»، وقوله - ﷺ -: «**إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا**»، والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب، ولا شك أن هذين الحديثين فيهما عَلَم من أعلام النبوة كما أشار إلى ذلك ابن المنير، فالشواهد الحسية أظهرت أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة، بل المراد منع الإفراط المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته.

* حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: (**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**)». قال ابن بطال في شرح هذا الحديث: «في هذا الحديث من الفقه أن النكاح من سنن الإسلام، وأنه لا رهبانية في شريعتنا، وأن من ترك النكاح رغبة عن سنة محمد عليه السلام فهو مذموم مبتدع... وفيه الاقتداء بالأئمة في العبادة، والبحث عن أحوالهم وسيرهم في الليل والنهار، وأنه لا يجب أن يتعدى طرق الأئمة

الذي وضعهم الله ليقتدى بهم في الدين والعبادة، وأنه من أراد الزيادة على سيرهم فهو مفسد، فإن الأخذ بالتوسط والقصد في العبادة أولى حتى لا يعجز عن شيء منها، ولا ينقطع دونها».

• الوسطية في تعريفات العلماء

التوسط هو القصد المصون عن الإفراط والتفريط بان يتحرى المسلم الاعتدال ويبتعد عن التطرف قولا وفعلا بحيث لا يقصر ولا يغالي (انظر الموسوعة ص 1353).

قَالَ ابْنُ الأَثِيرِ. رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى . فِي بَيَانِ أَفْضَلِيَّةِ التَّوَسُّطِ: كُلُّ خَصْلَةٍ مَحْمُودَةٍ لَهَا طَرَفَانِ مَذْمُومَانِ: فَالسَّخَاءُ وَسَطٌ بَيْنَ البُخْلِ وَالتَّبْذِيرِ، وَالشَّجَاعَةُ وَسَطٌ بَيْنَ الجُبْنِ وَالتَّهَوُّرِ، والإِنْسَانُ مَأْمُورٌ أَنْ يَتَجَنَّبَ كُلَّ وَصْفٍ مَذْمُومٍ، وَتَجَنُّبُهُ يَكُونُ بِالتَّعَرِّي مِنْهُ، وَالبُعْدِ عَنْهُ، فَكُلَّمَا ازْدَادَ مِنْهُ بُعْدًا ازْدَادَ إِلَى الوَسَطِ تَقَرُّبًا؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ أَبْعَدَ الْجِهَاتِ وَالْمَقَادِيرِ وَالْمَعَانِي مِنْ كُلِّ طَرَفَيْنِ وَسَطُهَا، فَإِذَا كَانَ فِي الْوَسَطِ، فَقَدْ بَعُدَ عَنِ الأَطْرَافِ المَذْمُومَةِ بِقَدْرِ الإِمْكَانِ.

قَالَ الشَّاطِبِيُّ . رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : الشَّرِيعَةُ جَارِيَةٌ فِي التَّكْلِيفِ بِمُقْتَضَاهَا عَلَى الطَّرِيقِ الْوَسَطِ الأَعْدَلِ الآخِذِ مِنَ الطَّرَفَيْنِ بِقِسْطٍ لاَ مَيْلَ فِيهِ، الدَّاخِلِ تَحْتَ كَسْبِ الْعَبْدِ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ عَلَيْهِ وَلا انْحِلاَلٍ؛ بَلْ هُوَ تَكْلِيفٌ جَارٍ عَلَى مُوَازَنَةٍ تَقْتَضِي فِي جَمِيعِ المُكَلَّفِينَ غَايَةَ الاعْتِدَالِ...، فَإِنْ كَانَ التَّشْرِيعُ لأَجْلِ انْحِرَافِ المُكَلَّفِ، أَوْ وُجُودِ مَظِنَّةِ انْحِرَافِهِ عَنِ الوَسَطِ إِلَى أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ،كَانَ التَّشْرِيعُ رَادًّا إِلَى الوَسَطِ الأَعْدَلِ، لَكِنْ عَلَى وَجْهٍ يَمِيلُ فِيهِ إِلَى الْجَانِبِ الآخَرِ لِيَحْصُلَ الاعْتِدَالُ فِيهِ، وَفِعْلُ الطَّبِيبِ الرَّفِيقِ يَحْمِلُ الْمَرِيضَ

عَلَى مَا فِيهِ صَلاَحُهُ بِحَسَبِ حَالِهِ وَعَادَتِهِ،وَقُوَّةِ مَرضِهِ وَضَعْفِهِ،حَتَّى إِذَا اسْتَقَلَّتْ صِحَّتُهُ هَيَّأَ لَهُ طَرِيقًا فِي التَّدْبِيرِ وَسَطًا لاَئِقًا بِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ،فَهَكَذَا تَجِدُ الشَّرِيعَةَ أَبَدًا فِي مَوارِدِهَا وَمَصَادِرِهَا جَارِيَةً عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ الْوَسَطِ الْمُعْتَدِلِ،فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى كُلِّيَّةٍ مِنْ كُلِّيَّاتِ الشَّرِيعَةِ فَتَأَمَّلْتَهَا وَجَدْتَهَا حَامِلَةً عَلَى التَّوَسُّطِ، فَإِنْ رَأَيْتَ مَيْلاً إِلَى جِهَةِ طَرَفٍ مِنَ الأَطْرَافِ فَذَلِكَ لِعِلاَجِ انْحِرَافٍ وَاقِعٍ أَوْ مُتَوَقَّعٍ فِي أَحَدِ الجَانِبَيْنِ، فَطَرَفُ التَّشْدِيدِ . وَعَامَّةً مَا يَكُونُ فِي التَّخْوِيفِ وَالتَّرْهِيبِ وَالزَّجْرِ. يُؤْتَى بِهِ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الانْحِلاَلُ فِي الدِّينِ،وَطَرَفُ التَّخْفِيفِ. وَعَامَّةً مَا يَكُونُ فِي التَّرْجِيَةِ وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْخِيصِ .يُؤْتَى بِهِ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الحَرَجُ فِي التَّشْدِيدِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ انْحِرَافٌ إِلَى هَذَا أَوْ ذَاكَ رَأَيْتَ التَّوَسُّطَ لاَئِحًا، وَمَسْلَكَ الاعْتِدَالِ وَاضِحًا، وَهُوَ الأَصْلُ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ وَالْمَعْقِلُ الَّذِي يُلْجَأُ إِلَيْهِ[1].

قالَ ابْنُ الْقَيِّمِ .رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : [إِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي وَصَّانَا اللهُ بِهِ وَبِاتِّبَاعِهِ هُوَ الصِّرَاطُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَأَصْحَابُهُ، وَهُوَ قَصْدُ السَّبِيلِ، وَمَا خَرَجَ عَنْهُ فَهُوَ مِن السُّبُلِ الْجَائِرَةِ،وَالْجَائِرُ عَنْهُ، إِمَّا مُفَرِّطٌ ظَالِمٌ أَوْ مُجْتَهِدٌ مُتَأَوِّلٌ أَوْ مُقَلِّدٌ جَاهِلٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَدْ نَهَى اللهُ عَنْهُ، فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ الاقْتِصَادُ وَالاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ وَعَلَيْهِمَا مَدَارُ الدِّينِ]).

وَقَالَ . رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى :مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ الْعَجِيبِ: أَنَّهُ يُشَامُّ النَّفْسَ، حَتَّى يَعْلَمَ أَيُّ الْقُوَّتَيْنِ تَغْلِبُ عَلَيْهَا: أَقُوَّةُ الإِقْدَامِ وَالشَّجَاعَةِ أَمْ قُوَّةُ الانْكِفَافِ وَالإِحْجَامِ وَالْمَهَانَةِ. وَقَدْ اقْتَطَعَ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ أَقَلَّ الْقَلِيلِ فِي هَذَيْنِ الوَادِيَيْنِ: وَادِي التَّقْصِيرِ وَوَادِي

الْمُجَاوَزَةِ وَالتَّعَدِّي. وَالْقَلِيلُ مِنْهُمْ جِدًّا الثَّابِتُ عَلَى الصِّرَاطِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ (وَهُوَ الْوَسَطُ)

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَةَ .رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى .: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: [الفِرْقَةُ النَاجِيَةُ] وَسَطٌ فِي النِّحَلِ كَمَا أَنَّ مِلَّةَ الإِسْلاَمِ وَسَطٌ فِي المِلَلِ، فَالْمُسْلِمُونَ وَسَطٌ فِي أَنْبِيَاءِ اللهِ وَرُسُلِهِ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، لَمْ يَغْلُوا فِيهِمْ كَمَا غَلَتِ النَّصَارَى،وَلَمْ يَجْفُوا عَنْهُمْ كَمَا جَفَتِ اليَهُودُ . وَهُمْ وَسَطٌ فِي شَرَائِعِ دِينِ اللهِ، فَلَمْ يُحَرِّمُوا عَلَى اللهِ أَنْ يَنْسَخَ مَا شَاءَ وَيَمْحُوَ مَا شَاءَ وَيُثْبِتَ مَا شَاءَ، كَمَا قَالَتْهُ الْيَهُودُ. وَلاَ جَوَّزُوا لأَكَابِرِ عُلَمَائِهِمْ وَعُبَّادِهِمْ أَنْ يُغَيِّرُوا دِينَ اللهِ فَيَأْمُرُوا بِمَا شَاءُوا وَيَنْهَوْا عَمَّا شَاءُوا كَمَا يَفْعَلُهُ النَّصَارَى. وَهُمْ كَذَلِكَ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى: فَإِنَّ الْيَهُودَ وَصَفُوا اللهَ تَعَالَى بِصِفَاتِ المَخْلُوقِ النَّاقِصَةِ، وَالنَّصَارَى وَصَفُوا المَخْلُوقَ بِصِفَاتِ الْخَالِقِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ، هَذَا فِي بَابٍ يَطُولُ حَصْرُهُ. وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ فِي الفِرَقِ فَهُمْ وَسَطٌ كَذَلِكَ، فَهُمْ فِي بَابِ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ وَسَطٌ بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ وَيُعَطِّلُونَ حَقَائِقَ مَا نَعَتَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ، حَتَّى يُشَبِّهُوهُ بِالْعَدَمِ وَالْمَوَاتِ، وَبَيْنَ أَهْلِ (التَمْثِيلِ وَالتَّشْبِيهِ) الَّذِينَ يَضْرِبُونَ لَهُ الأَمْثَالَ وَيُشَبِّهُونَهُ بِالْمَخْلُوقَاتِ . وَأَمَّا هُمْ: فَيُؤْمِنُونَ بِمَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ وَلاَ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ .

ثالثا: ملامح ومعايير الوسطية

ذكرنا آنفا في الإشكالات المتعلقة بمصطلح الوسطية أن بعض الكتابات بقصد أو غير قصد كانت رد فعل لظهور تيارات التطرف والغلو، مما ألزم بيان هذه الوسطية في ملامح محددة اجتهد كل كاتب في تعدادها، أوصلها الشيخ

القرضاوي في معالم الوسطية إلى عشرة، وهي :

1 - تبني التسيير والتبشير.

2 - الجمع بين السلفية والتجديد.

3 - المصالحة بين السلفية والتصوف.

4 - الاعتدال بين الظاهرية والمؤولة.

5 - الموازنة بين الثوابت والمتغيرات.

6 - مراعاة الواقع.

7 - الدعوة إلى التسامح والتعايش.

8 - تبني الشورى والحرية.

9 - إنصاف المرأة.

10 - إحياء الاجتهاد.

(انظر بحث الوسطية والاعتدال للدكتور القرضاوي مؤتمر الوسطية).

وهي عند البعض ملامح وسمات ست:

1 - السمة الأولى: الخيرية.

2 - السمة الثانية: العدل.

3 -السمة الثالثة: اليسر ورفع الحرج.

4 - السمة الرابعة: الحكمة.

5 - السمة الخامسة: الاستقامة.

6 - السمة السادسة: البينية.

رابعا: مؤشرات تغييب الوسطية

على ضوء ما سبق يكون الحديث عن مؤشرات تغييب الوسطية حديثا عن أسباب غياب ملامح ومعايير الوسطية السابقة الذكر، فضلا عن معوقاتها المرتبطة في تقديرنا بظاهرتين: ظاهرة الجهل وظاهرة الغلو.

1 - مؤشر الجهل

يقول ابن تيمية: «والجهل والظلم هما أصل كل شر، قال سبحانه ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ سورة الأحزاب72.

ومظاهر الجهل في الأمة متعددة، أبرز مؤشراتها

•الجهل بالكتاب والسنة :

ولا يقصد بالجهل عدم قراءة القرآن الكريم أو عدم معرفة أحاديث الرسول ﷺ بل يقصد بالجهل فضلا عما تقدم سوء الفهم للنص الشرعي في سياقه سباقا ولحاقا فتجد ذلك واضحة في غياب الوسطية عند هؤلاء بحمل آيات الكفار والمنافقين على المسلمين، فصاحب ذلك ظاهرة التكفير.

•والجهل بمنهج العلماء في فهم النصوص الشرعية:

فالذين يحيدون عن منهج العلماء في التلقي والفهم يبتعدون عن الوسطية فكرا ومنهاجا باتباع رؤوسا جهالا زعما في مرجعيتهم، روى البخاري في صحيحه في كتاب العلم كيف يقبض الله العلم، حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا.

•الجهل بمقاصد الشريعة وأهدافها :

العبرة ليست بالمباني على أهميتها فالغاية بالمعاني والمقاصد.

والذي يقف على النصوص الشرعية يجد مساحة واسعة فيها تحدثت عن قيمة العلم ومكانة العلماء، ويقابلها ذم الجهل وأهله، وهي أشهر من أن تساق في هذا الموضع، ولكن يكفيك أن نسوق حديثاً للنبي ﷺ يظهر كيفية انتشار الجهل بين الناس وما يحدثه من آثار وخيمة في المجتمع المسلم، ومنها بطبيعة الحال غياب الوسطية موضوع بحثنا، قال عليه الصلاة والسلام من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا» قال شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك: «قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها فتكون مشكلة بالنسبة إليهم لعجز فهمهم عن معانيها، ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل والحس إلا وفي القرآن بيان معناه، فإن القرآن جعله الله شفاء لما في الصدور وبيانا للناس، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك، لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ ؛ إما أن لا يعرفوا اللفظ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة». وقال الشاطبي مبيناً سبب الانحراف والضلال والتفرق: «وهو الجهل بمقاصد الشريعة والتخرص على معانيها بالظن من غير تثبت أو الأخذ فيها بالنظر الأول ولا يكون ذلك من راسخ في العلم. ألا ترى أن الخوارج كيف خرجوا من الدين كما يخرج السهم من الصيد المرمى؟ لأن رسول الله ﷺ وصفهم بأنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يعني -والله

أعلم- أنهم لا يتفقهون به حتى يصل إلى قلوبهم؛ لأن الفهم راجع إلى القلب، فإن لم يصل إلى القلب لم يحصل فيه فهم على حال، وإنما يقف عند محل الأصوات والحروف فقط وهو الذي يشترك فيه من يفهم ومن لا يفهم،

2 - مؤشر الغلو:

• كلمة الغلو في اللغة :

عرَّف أهل اللغة الغلوّ بأنَّه مجاوزة الحدّ، فقال ابن فارس: غلوّ: الغين واللام والحرف المعتلّ أصل صحيح يدلّ على ارتفاع ومجاوزة قدر، يُقال: غلا السّعر يغلو غلاء، وذلك ارتفاعه، وغلا الرَّجل في الأمر غلوًّا، إذا جاوز حدَّه، وغلا بسهمه غلوًّا إذا رمى به أقصى غايته وقال الجوهريُّ: وغلا في الأمر يغلو غلوًّا، أي جاوز فيه الحد.وقال في لسان العرب: وغلا في الدّين والأمر يغلو غلوًّا: جاوز حدَّه، وفي التّنزيل: ﴿ ... لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ... ﴾سورة النساء171، وفي الحديث: «إيّاكم والغلوّ في الدّين» أي: التشدّد فيه ومجاوزة الحدّ، كالحديث الآخر: «إن هذا الدّين متين فأوغل فيه برفق».

- وغلا السّهم نفسه: ارتفع في ذهابه وجاوز المدى، وكلّه من الارتفاع والتَّجاوز. ويقال للشيء إذا ارتفع: قد غلا، وغلا النَّبت: ارتفع وعظم.(انظر الموسوعة ص 5114)

وهناك ألفاظ ذات صلة بالغلو ككلمة التطرف، التنطع، التشدد، العنف، التعسير، الطغيان...(انظر موسوعة نضرة النعيم ص 5114).

كلمة الغلو في القرآن الكريم:

وقد وردت في القرآن الكريم آيتان فيهما النَّهي عن الغلوّ بلفظه الصَّريح، قال تعالى في سورة النساء 171﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا

تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ... ﴾.

قال الطبري: «يقول: لا تجاوزوا الحقّ في دينكم فَتُفْرِطُوا فيه.» وأصل الغلو في كل شيء مجاوزة حدّه الذي هو حدّه، يقال منه في الدّين: قد غلا فهو يغلو غلوًّا.

وقال ابن الجوزي في تفسير هذه الآية: «والغلوّ: الإفراط ومجاوزة الحدّ، ومنه: غلا السعر، وقال الزَّجَّاج: الغلوّ: مجاوزة القدر في الظّلم.

وغلوّ النَّصارى في عيسى قول بعضهم: هو الله، وقول بعضهم: هو ابن الله، وقول بعضهم: هو ثالث ثلاثة.

وعلى قول الحسن: غلوّ اليهود فيه قولهم: إنَّه لغير رشده. وقال بعض العلماء: لا تغلو في دينكم بالزّيادة في التّشدُّد فيه».

أمَّا الآية الثانية فجاءت في سورة المائدة، في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ قال الطبري: يقول:«لا تُفْرِطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح فتجاوزوا فيه الحقّ إلى الباطل، فتقولوا فيه: هو الله، أو هو ابنه، ولكن قولوا: هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه».

• كلمة الغلو في السنة:

وقد وردت بعض الأحاديث التي تنهى عن الغلوّ، وذِكْرُ بعضها يساعد على فَهم معناه وحدّه:

- عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله، ﷺ غداة جمع: «هلمّ القط لي الحصى»، فلقطت له حصيات من حصى القذف، فلمَّا

وضعهنَّ في يده قال: «نعم بأمثال هؤلاء وإيّاكم والغلوّ في الدّين فإنَّما أهلك من كان قبلكم الغلوّ في الدّين». قال ابن تيميَّة رحمه الله: «وهذا عامٌّ في جميع أنواع الغلوّ في الاعتقادات والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار، وهو داخل فيه، مثل الرّمي بالحجارة الكبار بناء على أنَّها أبلغ من الصّغار، ثم علَّله بما يقتضي مجانبة هديهم، أي هدي من كان قبلنا إبعادًا عن الوقوع فيما هلكوا به، وأنَّ المشارك لهم في بعض هديهم يُخاف عليه من الهلاك».

- عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله، ﷺ «هلك المتنطّعون» قالها ثلاثًا. قال النَّوويُ: هلك المتنطّعون: أي المتعمّقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

- وعن أنس بن مالك ﷺ أنَّ رسول الله، ﷺ كان يقول: «لا تشدّدوا على أنفسكم فيُشدِّد الله عليكم، فإنَّ قومًا شددوا على أنفسهم فشدِد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصَّوامع والدّيار ﴿...وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ...﴾ سورة الحديد27 .

- وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي، ﷺ قال: «إنَّ هذا الدّين يُسر، ولن يُشادّ الدّين أحد إلا غلبه، فسدّدوا، وقاربوا أبشروا، واستعينوا بالغدوة والرَّوحة، وشيء من الدَّلجة». وفي لفظ: «القصد القصد تبلغوا» قال ابن حَجَر: والمعنى: لا يتعمّق أحد في الأعمال الدّينيَّة، ويترك الرّفق إلا عجزوانقطع فيُغلب.

قال ابن رجب: والتّسديد العمل بالسَّداد، وهو القصد والتَّوسّط في العبادة، فلا يقصِّر فيما أمر به، ولا يتحمَّل منها ما لا يُطيقه.

- وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الرحمن بن شبل أن رسول الله، ﷺ قال: «اقرؤوا القرآن ولا تأكلوا به،

ولا تستكثروا به، ولا تجفوا عنه، ولا تغلو فيه»

- عنه، ﷺ أنه قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين». وكلّ هذه الأحاديث تدلّ على أن الغلوّ خروج عن المنهج ومجاوزة للحدّ، وفعل ما لم يشرعه الله ولا رسوله، ﷺ .

• تعريف العلماء للغلو :

- قال القرطبي: «الغلو في الدين الإفراط فيه كما أفرطت اليهود والنصارى في عيسى غلو اليهود في عيسى قولهم ليس ولد رشد، وغلو النصارى قولهم أنه إله.

- قال المناوي: الغلو هو مجاوزة الحد الغلو في الدبين التصلب والتشدد فيه ومجاوزة الحد.

- قال ابن حجر: المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد.

- قال ابن تيمية: مجاوزة الحد بأن يزاد في الشيء في حمده أو ذمه على ما يستحق.

ويمكن أن نتتبع ملامح الغلو فيما يلي:

- تفسير النصوص تفسيرا متشددا يتعارض مع السمة الغالبة للشريعة الإسلامية ومقاصدها الأساسية، ويندرج تحت هذه الاختيارات الفقهية الشاذة المخالفة للمذاهب المشهورة والمعتمدة:

- تكلف التعمق في معاني التنزيل.

- إلزام النفس أو الآخرين بما لم يوجبه الله عبادة وترهبا.

- أن يكون الغلو متعلقا بالموقف من الآخرين الوصف بالتفسيق والتكفير رفض الحواروقبول الرأي الآخر .

خاتمة

- ضرورة التواصل بين النخب العلمية والفكرية في إطار أمثال هذه المؤتمرات والاجتماعات في صورها الدورية وليس الطارئة؛ بحيث تساعد في التوصل إلى قواعد عامة وأطر كلية تحكم المفاهيم وتؤصلها.

- الإشراف على المناهج بشتى صورها سواء كانت مدرسية أو جامعية، أو مناهج مراكز علمية ودعوية وما شابه ذلك، بغية توحيد الرؤى المفاهيمية ودفع الإشكاليات المتعلقة بمفهوم الوسطية وأمثاله سواء في الجانب التنظيري والجانب العملي.

- الاهتمام بفئة الشباب؛ كونها الغالب عليها التأثر بمناهج الإرهاب والغلو، وهو ما يؤدي إلى إشكاليات منهجية وعملية، ما من شأنها زعزعة المجتمع وخلخلة أركانه، والاهتمام يقتضي وضع برامج تعليمية وعملية من أجل استغلال هذه الفئة فيما هو نافع على المستوى الفردي والمجتمعي، وحل المشاكل الاجتماعية غيرها. - الاهتمام بالجانب الإعلامي؛ كونه يمثل الوسيلة العظمى في التعبئة على الأفكار المنحرفة، وتسهم في التلقي المخالف لمنهج الأصيل في فهم الدين، وهذا يستدعي أن يسهم المختصون إلى وضع برامج إعلامية وإرشادية ذات بعد متواصل وليس مؤقتاً، يكون أثرها في المنظور البعيد.

الزكاة وأثرها في تحقيق التكافل الاجتماعي.

عربي عثمان
إمام أستاذ بمسجد مالك بن نبي
- الصديقية- وهران.

الحمد لله الذي جعل الزكاة ركنا من أركان الإسلام، وأوجبها من مال الأغنياء طهرة لهم من البخل والشح والآثام ومواساة لذوي الحاجة والأرامل والأيتام، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك القدوس السلام، جعل الإنفاق في سبيل الله تزكية للنفوس وتخفيفا للآلام

بادروا بزكاة المال إن بها
للنفس والمال تطهيراً وتحصيناً
ألم تروا أن أهل المال في وجل
يخشون مصرعهم إلا المزكينا
فهل تظنون أن الله أورثكم
مالاً لتَشْقَوا به جمعاً وتخزيناً
أو تقصروه على مرضاة أنفسكم
وتحرموا منه معتداً ومسكيناً
ما أنتم غير أقوام سيسألكم
إلهكم عن حساب المستحقينا
ولن تنالوا نصيباً من خلافته
إلا بأن تنفقوا مما تحبونا

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله سيد الأنام، أفضل من أنفق في سبيل الله فنال مراتب الجود والإكرام، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الكرام وعلى التابعين

لهم بإحسان إلى نهاية الأيام والأعوام

أما بعد: عباد الله للإسلام منهج فريد في رعاية الفقراء، والاهتمام بهم، من شتى الجوانب الاجتماعية والفكرية والنفسية والاقتصادية، ومما يبين رعاية الإسلام للفقراء ما جاء من النصوص الشرعية التي تدعو إلى الحث على مجالسة الفقراء وملاطفتهم ومجاورتهم والدعاء لهم ولم تقتصررعاية الإسلام للفقراء على الترغيب في مجالستهم وملاطفتهم، ولكن الإسلام حرص على مساعدتهم مالياً، ورعايتهم اجتماعياً، حتى تسد حاجتهم، وتكون هذه الفئات سعيدة في حياتها مطمئنة إلى أن معيشتها مكفولة ومن هنا فرض الله تعالى الزكاة على عباده الأغنياء ترد على عباده الفقراء قال تعالىّ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [لتوبة 60].

مكانة الزكاة: للزكاة في الإسلام مكانة رفيعة ومنزلة سامية ومرتبة متقدمة، فهي ركن من أركانه الأساسية، وشعيرة من شعائره الدينية الكبرى وعمود من أعمدته العظام قال خير الانام عليه الصلاة والسلام: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا» رواه البخاري، فلا يكتمل إسلام عبد إلا بإتيانه بهذه الأركان مجتمعة ومن أخل بركن منها اختل إسلامه، وها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول

في قولته الشهيرة معلنا الحرب على مانعي الزكاة: «والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم على منعها» رواه البخاري، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: [ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث آيات لا يقبل واحدة منها بغير قرينتها: أولها: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾، فمن صلى ولم يؤد الزكاة لا تقبل منه الصلاة، والثاني قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾، فمن شكر الله ولم يشكر والديه لم يقبل منه، والثالث قوله تعالى: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾، فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه] وهذا القرار الحاسم الذي أعلنه الخليفة أبو بكر ليس موقفا ارتجاليا ناشئا عن هوى أو تشه، بل هو نابع من روح الشريعة وأصولها ومقاصدها فلقد ذكرت فريضة الزكاة في القرآن ثلاثين مرة، واجتمع ذكرها مع الصلاة في سبعة وعشرين موضعًا، وذلك تعظيماً لشأنها، وتنويهاً بذكرها وترغيباً في أدائها وترهيباً من تركها والتساهل فيها قال ﷻ: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة 42] وقال تعالى ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ [البقرة 1 - 2] وبهذا تتبين لنا مكانة الزكاة و مدى أهميتها في الإسلام، وعندما ننظر في كتاب الله ﷻ نجد الزكاة قد أتت مقترنة بالصلاة في كثير من الآيات، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [المزمل 18]. وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿5﴾ ﴾ [التوبة 5] قال ابن عباس ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاثة، لا يقبل الله واحدة بدون قرينتها أما الأولى فهي قوله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [محمد: 34]. فمن أطاع الله ولم يطع الرسول فلن يقبل منه وأما الثانية فهي قول الله: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: 43]. فمن أقام الصلاة وضيع الزكاة لن يقبل منه وأما الثالثة فهي قول الله تعالى: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ [لقمان: 13] فمن شكر الله ولم يشكر لوالديه لن يقبل منه.

فوائدها وإنما فرض الله الزكاة على العباد لما تشتمل عليه من المصالح والمنافع العائدة على المتصدقين والآخذين في العاجل وآجل ومن تلك المنافع:

1 - إن بذل المال للكبير المتعال مع حبه يعد برهانا قاطعا على صدق الإيمان بالله جل وعز، ودليلا ساطعا على التصديق بوعد الله سبحانه القائل: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿274﴾ ﴾ [البقرة: 273].

2 - كما أن الزكاة تطهر باذلها من رذيلتي الشح والبخل، وتجعله من المؤهلين لمجاورة الله في الجنة، التي قضى سبحانه أن لا يجاوره فيها بخيل عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: « السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار ولجاهل سخي أحب إلى الله ﷻ من عابد بخيل» الترمذي.

وقد بين القرآن العظيم أن الزكاة طهرة لصاحبها فقال جل شأنه: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿103﴾ ﴾ [سورة التوبة: 104]

3 - وفي إخراج الزكاة حفظ للمال من أسباب التلف وآفات الضياع، قال المصطفى ﷺ: « **من أدى زكاة ماله فقد ذهب عنه شره**» الطبراني في المعجم الأوسط وقال أيضا: «**حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة**»الطبراني في المعجم الأوسط

4 - وإيتاء الزكاة سبب لحلول البركة في المال، بل ولا نبالغ عندما نقول إنها نماء للأموال وبركة قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿39﴾ ﴾ [سبأ 39]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ**» مسلم. بل هى نماء للحسنات والدرجات فقد قال ربنا جل ثناؤه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿261﴾ ﴾ [البقرة 260].

5 - ومن فوائد الزكاة أنها تذهب غل الفقراء على الأغنياء، فهى سبب لتأليف القلوب، وتأنيس النفوس، وإشاعة جو من التعاطف والتراحم والاحترام المتبادل بين أفراد المجتمع. فالزكاة طهارة للمجتمع كله أغنيائه

وفقرائه من عوامل الهدم والتفرقة والصراع والفتن وبذلك تتحقق وحدة الصف التي هي من أسمى مقاصد الشريعة وحكمها، الهادفة إلى إسعاد البشرية في معاشها ومعادها وتكون كما وصفها الصادق المصدوق ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه شيء، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» مسند الامام أحمد.

6 - ومن فوائدها أيضا أنها تحفظ ماء وجوه الفقراء من ذل السؤال، وتصون كرامتهم، وتعينهم على طاعة الله تعالى وترفع معنوياتهم بقضاء حاجاتهم وضرورات حياتهم؛ فيكونوا مواطنين صالحين ولأمتهم ووطنهم نافعين.

7 - فالزكاة طهارة لنفس الغني من الشح البغيض تلك الآفة النفسية المهلكة التي قد تدفع من اتصف بها إلى الدم فيسفكه أو العرض فيبذله أو الوطن فيبيعه ولن يفلح فرد أو مجتمع سيطر عليه الشح قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر 9]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: « **اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**» مسلم.

8 -كما أن الزكاة طهارة للغنى من الذنوب والآثام قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن

سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿271﴾ ﴾ [البقرة 270].

الترهيب من منعها: و لما كانت الزكاة تتبوأ هذه المكانة السامية، وتترتب هذه المنافع العظيمة على إخراجها، جاء الترهيب الشديد والوعيد الأكيد لمانعيها، فقال الله عزوجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿34﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿35﴾ ﴾[التوبة: 34 - 35]

و القاعدة العامة المقررة أحبتي في الله: « **أن من أحب شيئا فقدمه على طاعة الله عذب به**» فهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال واكتنازها أحب إلى قلوبهم من تضحياتهم في سبيل ربهم عذبوا بها يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار**» مسلم

أقول قولي هذا...

الخطبة الثانية

الحمد لله... أما بعد: فيا من منّ الله عليه بنعمة المال وأعطاه من فضله وكرمه وجوده اشكر الله على نعمته واحمد الله على هذا الفضل العظيم وقل: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ...﴾ [النمل 41] وأخرج زكاة أموالك وتصدق وأنفق قبل فوات الأوان قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون 10] فكم من صاحب مال بخل به و منع أهل الحقوق حقوقهم وجحد و نسب الفضل لنفسه فكان المال سببا لهلاكه وسبب لخسارة دينه ودنياه قال تعالى عن قارون قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ...وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص 76 - 81]

فهل من متعظ ومفكر، هل من مستترمن النارفعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، أَنّ النَّبِيَّ ﷺ: « **ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ، فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، ثُمَّ ذَكَرَ النَّارَ، فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ، فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ: اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ** » البخارى.

قـدم لـنـفـسـك خـيـــــرا وأنـــت مـــالـك مـــــالـك
مـن قـبـل أن تـصـبـح فـردا ولـــون حـــالـك حـــالـك
فـلـســت والله تـــــدري أي المـــــسـالـك سـالـك
إمـــا لـجـنـة عـــــــدن أو فـي المـهـالـك هـالـك

الـدعـاء